مشاهدات على ضفاف البحر الميت - الجزء الاول

مجلة التراث والمجتمع العدد 47 - أولريخ جاسبر سيتزن - ترجمة د. حمدان طه - 2008/02/20م - 10:00 ص

مقدمة

ينتمي أولريخ جاسبر سيتزن إلى طليعة المستكشفين الأوربيين الأوائل أمثال كارستن نيبور وريتشارد ليبسيوس وهاينريش بروغش وبوركاردت ثم إدوارد روبنسون وفان دير فلده وآخرين من الذين دشنوا بداية مرحلة جديدة من الاستكشاف العلمي للشرق في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وتتميز أعمال هؤلاء عن كتابات اللاهوتيين والحجاج والرحالة الأوائل الذين قدموا إلى المنطقة بدوافع دينية، ونسجوا صورة خيالية عن الشرق، مستمدة أساسا من التوراة والكتاب المقدس، ثم المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية. وقد بدأ عدد من هؤلاء المستشرقين في إعادة استكشاف الشرق الواقعي ضمن منظور ثقافي جديد، والتحرر تدريجيا من مفاهيم العصور الوسطى الموروثة والجامدة حول الشرق.

وأسدلت هذه الكتابات الجديدة الستار على فترة من الانقطاع بين الشرق والغرب أعقبت نهاية الحروب الصليبية وامتدت حتى قدوم حملة نابليون بونابرت إلى مصر. إن اكتشاف سيتزن الأول في حلب سنة 1803 وهو "أن الشرقيين بشر مثلنا تماما" لهو اكتشاف بالغ الدلالة، ويدلل على حالة العزلة التي كانت تخيم على العلاقة ما بين الشرق والغرب. وجاءت أعمال هؤلاء المستكشفين امتدادا تلقائيا لحركة التنوير التي بدأت في أوروبا نفسها، وترافقت مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية الشاملة التي عصفت بالمجتمعات الأوروبية، وتمثلت بنشوء المجتمع الرأسمالي وصعود البورجوازية، بعالمها الثقافي الذي قام على العلم والتوسع، والتي أخذت تتجه بأنظارها إلى العالم القديم، وتتطلع إلى مناطق نفوذ وأسواق جديدة، وهي المرحلة التي توجت لاحقا بالاستعمار الأوروبي المباشر للشرق. أن أعمال المستكشفين الأوائل، رغم النزوع الفردي والمغامر فيها أحيانا لم تكن قصرا على حب الاستطلاع والمعرفة العلمية، بل كان من دوافعها أيضا استكشاف مجالات جديدة، وهي التي مهدت الطريق أمام جحافل جيوش المستعمرين لغزو الشرق الذي كان يغط في سبات عميق.

وأولريخ جاسبر سيتزن من مواليد صوفين جوردن في شمال ألمانيا[1]، وكان والده مالكا كبيرا، ولهذا تمكن من الالتحاق بجامعة غوتنغن ودراسة الطب والعلوم الطبيعية، وكانت جامعة غوتنغن في أواخر القرن الثامن عشر إحدى أهم الجامعات في العالم في هذا المجال. وشارك الشاب سيتزن مع يوهان بلومنباخ والكسندر فون همبولد في تجمع للفيزيائيين، وقام سيتزن بأجراء

أولى تجاربه على الصخور والنباتات. ثم بدأ أبحاثه وتجواله في مناطق مختلفة من ألمانيا والنمسا، ولكن الطبيب الشاب لم يظهر رغبة في فتح عيادة وممارسة الطب. وتملكته الرغبة مثل صديقة فون همبولد في إستكشاف المجاهل البعيدة. واثر زيارة لهولندا تحول سيتزن إلى تاجر للأخشاب وعالم للطبيعة جامعا بين التكنولوجيا والعلم.

ولكن انجذابه إلى البعيد لم يثبطه نجاحه في عالم الصناعة، وفي هذه الأثناء بدأت تتوالى أخبار المستكشفين في أفريقيا والهند وسوريا وفلسطين ومصر، وفي سنة 1800 قرر سيتزن اللحاق بالركب، والانطلاق من شرق الجزيرة العربية إلى أفريقيا والعبور إلى أفريقيا الوسطى، وهي هدف سيتزن، وقد وضع جميع أمواله في خدمة هذا الهدف.

انطلق سيتزن في رحلته في شهر حزيران سنة 1802 عبر فينا ومنها إلى القسطنطينية، وواصل رحلته مع قافلة إلى أزمير، وفي نهاية شهر نوفمبر 1803 وصل إلى حلب، ومكث فيها مدة سنة، ليس لاعتبارات عملية، ولكن لاعتبارات مالية. وهنا كتب سيتزن "أن هدفي بزيارة الجزيرة العربية وأفريقيا قد تعزز هنا ولم يتضاءل، وأكتشف يوميا بأن الشرقيين هم بشر مثلنا تماما". وقد وجد العديد ممن وفروا الدعم المالي لرحلته ومن بينهم دوق جوته وقيصرة روسيا كاترين الثانية والقيصر الكسندر الأول، بما مكنه من السفر باتجاه الجنوب إلى منطقة البحر الميت وأراضي الضفة الشرقية لنهر الأردن، وهنا بدأت اكتشافاته اللامعة من وجهة نظر العالم الأوروبي. التي كانت هذه المناطق كانت معروفة له.

وفي شهر أبريل سنة 1806 وصل سيتزن إلى القدس، ليحقق رغبة دوق غوته في زيارة محيط البحر الميت، وهي جولة جريئة وناجحة كما سنرى. وفي بداية سنة 1807 واصل سيتزن رحلته من فلسطين إلى السويس عبر شبه جزيرة سيناء، وأمضى سنة في مصر قام فيها بتدوين مذكراته وتقاريره العلمية، وفي هذه الأثناء قام بجمع 1162 مخطوطة لصالح متحف غوته وحوالي 1464 من العاديات.

حمل سيتزن في مصر اسم موسى الحكيم، وقام بالتجول كتاجر مصري متخفيا بالإسلام وزار الفيوم وأعالي النيل والعديد من المواقع الأثرية، وفي 23 آذار أنهى كتابة مذكراته، وبدأ يعد العدة للمهمة الكبيرة التي وضعها نصب عينية، وهي الذهاب إلى أفريقيا عبر الجزيرة العربية. وتعود رسائله الأخيرة إلى شهر نوفمبر سنة 1810. سافر مع جمع من الحجاج المسلمين من السويس إلى جدة في شهر أكتوبر سنة 1809، وذهب إلى مكة حاجاً تحت اسمه المستعار، حيث قام هناك برسم مخطط الكعبة سراً، وأظهر بأن رسم كارستن نيبور غير دقيق، وكان الجميع يعرف بأن هذا العمل عقوبته الموت. وواصل سيتزن رحلته في شهر أكتوبر 1809 عبر المدينة والحديدة وذمار وتعز على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى طريق باب المندب. ويبدو أن سلوك سيتزن المستطلع قد أثار الشكوك حوله، ويعتقد البعض بأنه تم الكشف عن أوراقه بما في ذلك المخططات التي رسمها سيتزن لمكة المكرمة والمدينة سرا، وأنه سم على الطريق بالقرب من تعز بأمر من إمام صنعاء، وهي رواية غير مؤكدة، والأكيد هو أنه عثر على سيتزن ميتا على الطريق، وإذا ما قتله حب استطلاعه أو وقع ضحية لقطاع الطرق فلم يعرف على وجه اليقين، وبقي سرا دفن معه، ذلك أن الكنوز بحمولة دزينة من الجمال لم يعرف مصيرها. ولا بد من القول أن سيتزن قد قضى في خدمة المعرفة، بغض النظر عن الدوافع الخاصة التي واكبت هذه المرحلة من تاريخ الأبحاث. ونشرت مذكراته وتقاريره لاحقا باللغة الألمانية في ثلاثة أجزاء ما بين 1854–1859 تحت عنوان "رحلات أولريخ جاسبر سيتزن عبر سوريا وفلسطين وفينيقيا وشرق الأردن والجزيرة العربية ومصر". وهي ترجمة لعشر سنوات من البحث ابتداء من زيارته الأولى لفلسطين وحتى نهايته الدرامية على رمال الجزيرة العربية.

وقد تحول سيتزن للإسلام مثله مثل بركاردت، وتمثل عادات المسلمين ولبس لباسهم. وبدأ جولته في منتصف شهر ديسمبر 1806 إلى الجهة الغربية للبحر الميت والى الجهة الشرقية للبحر الميت في بداية عام 1807، ويقع البحر بين فلسطين والأردن وهو بطول 80 كيلومترا، ويقع على انخفاض 400 مترا تحت سطح البحر. ويتميز هذا البحر بملوحته الشديدة (نسبة 20%) بما لا يسمح للحياة الحيوانية أو النباتية، هذا رغم أن الأبحاث الجديدة حول البحر الميت قد أثبتت وجود حوالي تسعة عشر من نوعاً من الأحياء فيه، ولكنها لا ترى بالعين المجردة.

وكان سيتزن مطلعا على أبحاث ميخائيلس حول بحيرة لوط، وهي البحر المالح كما جاء ذكره في التوراة وفي المصادر الكلاسيكية، والتي جاء منها وصف الإسفلت النابع من البحر الميت، كما رواها المؤرخ فلافيوس يوسيفوس والجغرافي اليوناني سترابو. ويعتبر وصف سيتزن للبحر الميت والطبوغرافيا المحيطة به وعالم النبات والحيوان وصفا كلاسيكيا نادرا لهذه المنطقة قبل أن تتدخل فيها يد الإنسان. وما يزيد من قيمة هذا الوثيقة التي تعود إلى بداية القرن التاسع عشر هو تعرضها بالوصف الوافي لعادات الناس وطباعهم وانتشارهم الجغرافي في برية القدس وبيت لحم، ونمط حياتهم، خصوصا عرب الرشايدة والتعامرة وعرب حاتم، بما يجعل منها مصدراً اثنوغرافياً هاما للتعريف بالمنطقة وسكانها. إن منهجية سيتزن ودقة ملاحظته للظواهر تثير الإعجاب. فقد ترك لنا وصفا حيا ومثيرا ونادرا للمشاهد الطبيعية والحياة النباتية والحيوانية في هذه المنطقة. وما يبعث على الإثارة حقا هو الصورة التي رسمها سيتزن حول عذرية المكان.

كتب سيتزن مشاهداته على شكل مذكرات يومية، ولم تفته شاردة ولا واردة منذ انطلاقه من القدس وحتى عودته إليها. وقد استغرقت الجولة منذ انطلاقه الفعلي في الخامس عشر من شهر ديسمبر مدة أربعة أيام، بعد خمسة أيام من التحضير والإعاقة غير المتوقعة في بيت لحم، بما جعله يؤجل زيارته للشاطئ الشرقي للبحر الميت لجولة أخرى. ويمكن إعادة بناء خط سير سيتزن في هذه الرحلة والتعرف على الأماكن التي مر بها، انطلاقا من بيت لحم إلى تل الفريديس، وقد أتى على ذكر مواقع قصر الليمون ووادي خريطون وخربة خريطون ومغاوره الشهيرة. ومن هناك واصل سيره بالاتجاه الجنوبي الشرقي حتى وصل إلى الجرف الصخري المطل على عين جدي، ثم هبط إلى شاطئ عين جدي، ومن هناك، تابع المسير بمحاذاة الشاطئ مرورا بعين الترابه وعين الغوير ثم تل المزوغل ووادي الراهب وتل اللتون وعين الفشخة، ثم دلف إلى الغور الجنوبي وهو غور السيسبان، وقطع وادي القلط شمالاً إلى أريحا ونبع عين السلطان. وأخذت طريق عودته من أريحا إلى القدس تقريبا مسرى الطريق الحالي باتجاه جنوب غرب مرورا بمقام النبي موسى ثم غربا مرورا بالخان الأحمر وخان الحوط ثم العيزرية وسلوان وطنطور فرعون فالقدس. ويدور خط هذه الجولة حول برية بيت لحم والقدس.

وعلى مدار رحلته سجل سيتزن ملاحظاته بروح العالِم دونما تحيز، مفنداً ومؤيداً الآراء بناء على استنتاجاته الحسية، ومميزا بين الواقع والأسطورة دون مواربة. وكان يعرف حدود علمه ويبتعد عن الاجتهاد فيما لا يعرف. والآن وبعد حوالي مائتي سنة بالضبط من جولة سيتزن، وبعد مائة سنة من البحث الأثري في فلسطين يمكن القول بأن استنتاجات سيتزن المبكرة حول طبيعة الاستيطان البشري في منطقة البرية شبه الجافة باعتبارها موطنا تاريخيا لنمط الحياة الرعوية قد أيدتها الأبحاث الأثرية اللاحقة. وحظيت النباتات والمشاهد الطبيعية بالقسط الأعظم من انتباهه. أما بالنسبة لأنماط الاستيطان البدوية التقليدية في برية بيت لحم والقدس فهو يذكر ثلاث تجمعات رئيسية، وهي عرب حاتم في شمال البحر الميت وأريحا، وعرب التعامرة شرقي بيت لحم، وعرب الرشايدة في منطقة عين جدي والى الغرب منها. ولكن لم يفته أيضا مراقبة سلوك مرافقيه الأربعة والناس الذي قابلهم في رحلته، بروح المراقب المتفرس الفطن. كما أبدى ملاحظاته الذاتية أيضا خصوصا في معرض المقارنة ما بين الأمن في فلسطين وأوروبا على سبيل المثال، وهو يصف قاطع الطريق البدوي كلص إنساني لا يستهدف أرواح الناس عند سلبهم، بما يعطي صورة

عن الأوضاع في هذه الفترة. ويجدر الانتباه هنا إلى الغياب شبه الكلي للسلطة العثمانية، التي كانت قد بدأت تشهد حالة من الاضمحلال السياسي، بما يؤكد أن هذه المناطق كانت تحت السيطرة التامة للقبائل البدوية. ولم يخلوا هذا النص من بعض الآراء الخاصة التي تميز النظرة الاستشراقية عموماً. إن النص الذي كتبه سيتزن باللغة الألمانية حول جولته على ضفاف البحر الميت يقدم شهادة نادرة حول الأوضاع في فلسطين في بداية القرن التاسع عشر، وفيما يلي ترجمة لذلك النص:

جولة على الضفة الغربية للبحر الميت وأريحا

10 ديسمبر 1806

عرض علي رجل من بيت لحم مرافقتي إلى البحر الميت كما سبق وأسلفت، وبدت لي مطالبه أول الأمر مبالغا فيها، مما دفعني إلى قطع المساومة معه. ولكن، وبعد أن سدّت كافة الطرق أمامي، فقد قررت قبول المجازفة والتوصل إلى اتفاق معه. وبعد وصولي مباشرة إلى بيت لحم اتفقت معه على مرافقتي مع ثلاثة من البدو مقابل مبلغ معين من المال، حيث وعدني بتوفير حصانين لمرافقتي إلى البحر الميت. ولأنني كنت على علم بصعوبة الحصول على المواد الغذائية على طول الطريق، فقد احتطت لنفسي في القدس بمخزون من البصل والزيتون..الخ. وهنا طلبت إضافة إلى هذا قدراً من الطحين والزيت والدبس، كما طلبت توفير علف للدواب. وتحدد الثاني عشر من شهر ديسمبر كموعد لانطلاق رحلتنا، وكان الجو غائما، ولكنه أحسن بقليل من الأيام التي سبقتها. وحداني الأمل بجو صاف. وكنت قد سلمت نقودي إلى وكيل الدير لأتحاشى فقدانها أثناء الرحلة.

وكان بطرس، وهو كاثوليكي من بيت لحم، قد أكد لي في القدس بأنه رأى المكان الذي ينبع منه الإسفلت على الضفة الشرقية للبحر الميت، مقابل عين جدي تقريبا حيث يرى الإنسان دوما زفت كزيت يرشح من الصخر، ويشكل عند منبعه طبقة صلبة متحجرة. ولكن لأنه لم يتوخ الصدق في مقاله، وصار يعلم الآن بأن هذه الكذبة توشك أن تفتضح قريبا، فقد اعترف بأنه لم ير هذا المكان الذي أطلق عليه اسم عين الحمار، وأضاف، فوق ذلك، بأنه من غير الممكن لأي إنسان الاقتراب من هذا المكان بصورة كافية من أجل فحصه لأنه يقع أسفل جرف صخري، بحيث يمكن للطيور أو لسباح ماهر فقط الوصول إليها، وأن الإنسان يستطيع بواسطة منظار من الضفة الغربية للبحر أن يرى زفت ينز نقطة نقطة. وهذا يعني التعويض عن كذبة بكذبة أخرى أكثر حذلقة. ذلك أن هناك مسافة أربع أو خمس ساعات تفصل ما بين الشاطئين عند هذه النقطة. ومع أن كثرة من أهل بيت لحم قد وافقوه على خبر رشح زفت، فإن أحداً منهم لم ير ذلك بأم عينه. ولاحظت بما فيه الكفاية بأنه لا يمكن الاعتماد على هذه الأقوال.

وفي الحادي عشر من شهر ديسمبر جاء ثلاثة بدو من عرب التعامرة يقطنون المنطقة الجنوبية الشرقية بالقرب من بيت لحم، وقدموا الاعتذار لعدم تمكنهم من السفر في اليوم التالي، لأنه اليوم الأول من عيد الأضحى ويتوجب عليهم الاحتفال به كمسلمين. وبعد الظهر جاء واحد منهم عندي وأوضح بأنني إذا ما أردت الذهاب إلى الضفة الشرقية للبحر الميت فانه سيعود وزميلاه أدراجهم من حيث أتوا بسبب وجود ثأر بينهم وبين عشيرة بدوية في الضفة الشرقية للبحر الميت. ولكن حين تناهى إلى أسماعهم بأنني أبحث عن مرافقين آخرين، وبما أنهم لا يريدون تفويت فرصة كسب جيدة، فقد استجابوا مجدداً، ولكن شرط أن نقوم بقطع المسافة من مدخل وادي الحسا إلى مدخل وادي الكرك ليلا تحت جنح الظلام، تفاديا للمخاطر المحدقة بهم. ولأنهم سيتمكنون من الهرب على وجه اليقين إذا ما خانهم الحظ والتقوا بواحد من أعدائهم. وكانوا قد أفصحوا عن نيتهم هذه دون احتراس لبطرس حيث علمت بها منه فوراً. ومن أجل استبدالهم بعثت في الثاني عشر من شهر ديسمبر رسولاً إلى عشيرة الجهالين الذين يتمتعون بعلاقات حسن جوار مع بدو الضفة الشرقية، مع الأمل أن يأتي الرد في اليوم التالي.

تأجلت رحلتي المفترضة وبقيت في بيت لحم. ولان كثيراً من البدو يأتون يومياً لزيارة المدينة فقد تناهى إليهم الخبر. وحين ابتعدت مرة عن الدير لجمع النباتات البرية، استوقفني رجل بدوي، وأعجبه قيامي بجمع الطحالب، وسألني ما إذا كنت الشخص الذي يريد القيام بجولة حول البحر الميت، وأجبته "بأنني آمل ذلك". فقال "العرب راح يذبحوكم"، وأجبته نافيا "العرب لا يذبحون" فأنا أعرفهم وكنت في السلط والكرك. فقال مشيرا إلى بضعة أشخاص من بيت لحم اقتربوا منا: شوف شوف ها الملعون! ها الخنزير! مشيراً نحوي. وتظاهرت وكأنني لم أسمع، وتابعت سيري.

في الثالث عشر من شهر ديسمبر اعترف بطرس أمامي بأنه لم يرسل رسولا إلى عرب الجهالين بل إلى عرب الرشايدة، وأنه ينتظر قدومهم في نفس اليوم أو اليوم التالي. وفي المساء عاد الرسول بالخبر غير السار، ومفاده بأنه لا أحد من عرب الجهالين ولا عرب الرشايدة راغب في هذه الرحلة، لأنهم لا يعرفون كافة العشائر البدوية في الجهة المقابلة، فهذا موسم النجعة على الجهة المقابلة. والطقس في هذا الوقت من السنة أكثر دفئا الأمر الذي يجعلها أغني بالعشب من مرتفعات الجبال، التي يحطون رحالهم فيها في مواسم السنة الحارة، وحينها يندر أن يظهر البدو حول البحر الميت.

تملكني استياء شديد بسبب المصاعب غير المتوقعة التي تحول دون تحقيق مرادي. ولتصميمي على تحقيق هذا الهدف، فقد قررت الذهاب إلى الكرك لأبحث عن أشخاص يرغبون في مرافقتي. ولكن، لأن عيد الميلاد كان على الأبواب وكنت تواقا للاحتفال به، ونظرا للمصاعب الجمة التي أحاطت بهذه الرحلة، فقد رأيت أن من الأنسب أن أكتفي هذه المرة بزيارة الشاطئ الغربي للبحر الميت، وتأجيل زيارة الشاطئ الشرقي إلى ما بعد العيد. واتفقت على ذلك سريعاً مع بطرس. وفي اليوم الخامس من شهر ديسمبر انطلقنا عند الساعة التاسعة صباحا في رحلتنا. وبدلا من الحصانين كما اتفقنا أحضر بطرس بغلين. وامتطيت بغلي دون أنبس ببنت شفة، حتى أتجنب أسباب تأخير جديدة. كما أن الفرق بالنسبة لي لم يكن بتلك الأهمية. ورافقنا رجل من بيت لحم وهو صاحب البغال، وبدويان من عرب التعامرة، الذين اختيروا لمرافقتنا في هذه الرحلة. وكان الطقس جميلاً.

تقع عين جدي التي قررت زيارتها أولا إلى الجنوب الشرقي، على مسافةتسع أو عشر ساعات من بيت لحم إلى شاطئ البحر الميت. وتخترق الطريق في البداية الجبال والوديان، وهي مليئة بالحجارة، وتحف بها بعض البساتين وكروم العنب، تسندها سلاسل حجرية، تنم عن اجتهاد أهل بيت لحم.

بعد ذلك لحقنا في الطريق ببعض البدو من عشيرة الرشايدة، يسيرون خلف حمار محمل بالزيت، وهم يقيمون في هذه المنطقة الجبلية إلى الغرب من عين جدي. وكانوا قد سمعوا عن رحلتي، ولكنهم لم يكونوا متيقنين من وجهتنا والطريق الذي سنسلكه. ولان مرافقي كانوا يريدون إخفاء الأمر، فقد قالوا لهم بأننا نريد الذهاب إلى الخليل، ومن هناك نتوجه إلى الطريق الجنوبي للبحر الميت. وفي هذه الأثناء لاحظوا بأننا لم نسلك تلك الطريق للذهاب إلى عين جدي. وهكذا انكشفت حيلة مرافقي، واشتبك رجل كبير السن من عرب الرشايدة في مشادة كلامية حادة مع خليل أحد مرافقي، وهو شاب صلب العود، أكد فيها الأول أنه يعرف سلفابأنه لا يمكننا السير من عين جدي شمالا على طول شاطئ البحر، ولكن الآخر خالفه الرأي. وحالما تحول النقاش إلى عراك بالأيدي، وانتضى خليل خنجره، حينها سارع البقية للفصل بينهما. وقال لي خليل بعد ذلك "وحياة الله لو ما أبعدونا عن بعضنا لضربته بالخنجر". ومن خلال هذه الكلمات بدأت أتعرف عليه لاحقا!. أما الرجل التلحمي رفيق بطرس فقد استبد به الخوف وقرر العودة أدراجه بالبغل. وهكذا نقلت الحمولة على البغل الذي أمتطيه، وتحول البغلان الذي وعدت بهما إلى بغل واحد. وأصبح الرجال الرشايدة هم مرافقي.

في الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى مضارب بعض بدو التعامرة، الذين يقومون بفلاحة الحقول الصغيرة. ويسكن التعامرة في الخيام، وان كانوا في الأصل فلاحين. وتوجد قرية لهم على أقدام جبل الفريديس، حيث يرى الإنسان بقايا كنيسة ...الخ. والقرية مهجورة بسبب استبداد الحكومة. ذلك أنهم في خيامهم يرتحلون فارين بسهولة أكثر، عند الضرورة، مما لو ظلوا في سكن ثابت. وتكاثر البدو على حساب الفلاحين يعزى بدون شك لهذه الأسباب. وما زال التعامرة يمارسون الفلاحة كثيرا، ويلبسون مثل باقي الفلاحين، ولا يعتمرون الكوفية المألوفة للبدو. وهم في الغالب ذو بنية عضلية أقوى من الفئة الأخيرة، ويتمايزون عنهم عبر سحنات وجوههم. والتعامرة لا يختلفون عن باقي الفلاحين السوريين. وقبل خمس وثلاثين سنة سيطروا بمساعدة أهالي بيت لحم على أرض بدو عشيرة حاتم، الذين أرغموا على الرحيل وعقد الصلح.

بعد ذلك بقليل تراءى لنا في الاتجاه الشمالي جبل مخروطي رائع، يعرف هنا باسم تل الفريديس[ii]، وما زال الإنسان يشاهد فيه آثار حصن قديم لا بد أن فرسان يوحنا قد دافعوا عنه لفترات طويلة[iii]. ويفاخر عرب التعامرة بأنهم أحفاد هؤلاء الفرسان، ويحملون هذا على محمل الجد، رغم أن أي فارس، إذا ما كنت محقا، سيقع أسير حب عذرية المكان. ولا يسع المرء إلا أن يتذكر طريقة حياة الفرسان المالطيين في زماننا.

رغم ذلك يراودني الشك بأن هذه الأقوال تستند إلى أسس تاريخية مؤكدة. وهي تستند إلى ما تناقله بحرص الخلف عن السلف شفاها، أكثر منها إلى أسس مكتوبة. ذلك أنه لا يوجد واحد من هذه العشيرة يجيد معرفة القراءة والكتابة. وأن الرهبان الأوروبيين قد أعطوا عرب التعامرة الذريعة الكافية إلى اعتبار أنفسهم أحفادا للإنجليز.

تقع الفريديس على بعد ساعتين من بيت لحم. وعلى بعد مسافة باتجاه الشرق أشاروا إلى قصر الليمون[iv]، وهو موقع مهجور، وتبين لي بأنه ليس أكثر من بقايا خربة غير هامة. والى الجنوب من تل الفريديس أطلال موقع خريطون[v]. وفي الوادي الذي يحمل نفس الاسم توجد مغارة التيه الكبيرة، ويطلق عليها سكان بيت لحم اسم المعصى[vi]، وتقع على بعد ثلاث ساعات من بيت لحم. ويزور هذا الكهف الرهبان الفرنسيسكان مرة كل ثلاث سنوات، ويطلقون عليه اسم التيه. وهو أكبر من غيره من الكهوف، وتقع إلى الشمال من تل الفريديس، على بعد ساعتين من بيت لحم مغارة أخرى يطلق عليها الرهبان اسم مغارة داود. كما ويطلق عليها أهالي بيت لحم اسم مغارة شاؤول أو مغارة أم الطلية. والأسماء الأخيرة معبرة تماما، لان الإنسان يستطيع منها التمتع بمشهد عام للمنطقة، كما لو أنها أعلى جبل. وبما أن أكبر كهوف المعصى بالقرب من عين جدي، وهي المنطقة التي لجأ الملك داوود إلى كهوفها الصخرية الصعبة، فهي أغلب الظن المسرح المعروف الذي أظهر فيه داود بشكل ملفت للنظر، سقوط ثقته التي لا تتزعزع برجاله، وليس بأي حال من الأحوال مغارة داود، لأنها تحت كل الظروف صغيرة جدا. وقد أكد لي الناس أن الرهبان يربطون حبلا كي يتجنبوا الضياع في ممرات كهف خريطون. ورغم أن قمة جبل خريطون الرائعة تعطي الانطباع بأنها جبل بركاني، فهي تتشكل، مثل باقي الجبال الأخرى، من الصخور الطباشيرية.

وأثناء ترحالنا التقينا ببعض بدو الرشايدة، الذين كانوا منشغلين بسقاية قطعان الضأن والماعز، و ينتشلون الماء من البئر بواسطة دلو جلدي، ويغنون في أثناء ذلك بعض الأغاني الإيقاعية، مثل بحارتنا عندما يطلقون الشراع أو يسحبون المراسي، وهم عموما قصار القامة وناحلون وذوو بشرة بنية مائلة للصفرة. وهي ملامح معظم البدو.

ولا تظهر الجبال في هذه المنطقة شواهد على الحضارة، وتغطيها كميات من الحجارة الصوانية والطباشيرية. ويبدو أن هذه الجبال الجرداء كانت منذ آلاف السنين موطنا للبدو. وعلى الأقل يبدو لي محتملا أن المكان المفترض لقصة قطعان أغنام شاؤول وداوود (صمويل الأول 24:4) هو مكان لمضارب أو قطعان تعود للبدو. ويراودني الشك بأن تحديد هذا الموقع كما جاء في

الترجمة اللوثرية غير صحيح تماما. ويواجه الإنسان في هذه المنطقة بالمقارنة مع مناطق أخرى في فلسطين القليل من آثار المدن الغابرة. مما يؤيد الاعتقاد بأنه لم توجد أماكن سكن ثابتة فيها أبدا.

بعد الظهر وصلنا مضربا من اثنتي عشرة خيمة يسكنها بدو الرشايدة. ونزلنا عندهم واستقبلونا بالقهوة والفطير الطازج المعجون بالزيت. وقد هموا على ذبح خروف لنا، ولكنني أنا وبطرس في صوم عيد الميلاد، حيث لا يسمح لنا بأكل اللحم والزبدة والبيض ومشتقات الحليب.

مكثنا هنا ساعة ونصف، واصطحب بطرس عددا من المسلحين من بين هؤلاء لرحلتنا البعيدة، ذلك أن الأشخاص الذين جاءوا معنا قرروا البقاء هنا. وبعد مرور ما لا يزيد عن نصف ساعة من المضارب اشتبكوا مع بطرس في جدال حول الأجر ثم عادوا من حيث أتوا. وأمكن مواصلة الكلام آخر الأمر مع واحد منهم فقط، للذهاب معنا. وتجددت المشادة الكلامية معه بعد ذلك بقليل، وأيقن بطرس أنه لا مناص من القبول بطلباته، وعدا ذلك فان وجودنا في هذه المنطقة لن يكون آمنا. وكانت صحبتي الآن تتكون إلى جانب بطرس من التعمريين وهذا الرشيدي.

والى الشمال من الطريق أشار لي هؤلاء إلى موقع في وادي، يوجد فيه كهف، أكبر من مغارة داوود.

وكلما تقدمنا تبدت الأرض جرداء ومتجهمة وصخرية وقاحلة على الدوام. ورغم ذلك لا تخلو الأرض من أشكال الحياة البرية، فقد شاهدنا خمسة خنازير برية تقفز أمامنا، كما وقع نظرنا بعد ذلك على غزال، تضوع حظيرته برائحة المسك الطيبة.

وبعد ساعة ونصف من غروب الشمس تقريبا عرجنا على مغارة، من أجل ربط بغالنا قريبا منا. ذلك أن أمنها ضروري. وقد أشعلت النار فورا، وانتظرت أن يقوم أحد بإعداد القهوة والخبز الطازج، لكنهم أخبروني بأن الماء غير متوفر هنا، فقد نسوا ملء قرب الماء من عند البدو. كان الوضع يبعث على الضيق. ولحسن الحظ كان عندي قليل من الخبز الذي أخذته من الدير، والذي أثار إعجاب مرافقي البدو، لأنه معد على الطريقة الأوروبية، وجديد نسبيا بالنسبة لهم. وبعد وصولنا مباشرة بدأ المطر في النزول، وأضاء البرق سماء هذه الليلة. ونمنا بهدوء حول الموقد، رغم ما عانيناه من البرد بعد منتصف الليل.

غادرنا المغارة الساعة السادسة صباحا في اليوم التالي. وأصبحت المنطقة جبلية بشكل عجيب، تخترقها وديان عديدة. وكلما اقتربنا من البحر الميت أصبحت الأرض أكثر عريا وقفرا، وهي مليئة بالحصى وخصوصا حجر الصوان المائل للسواد. وتُرى في الطريق بعض الحجارة المبنية فوق بعضها البعض لتشير إلى قبر ينتصب بجلال لأحد البدو. وعندها يقترب البدو الثلاثة بكل احترام ويقبلون حجرا صغيرا دائريا موضوعا فوقه.

ورأيت في هذه الجبال القاحلة الكثير من الفتحات في الأرض. وأكد لي مرافقي العرب بأن هذه هي حفر الجربوع. ولكنني لم أقتنع بذلك لأنني لم أر ذلك بأم عيني. وكان جوابهم على السؤال الذي طرحته عليهم وهو: ماذا يوجد في هذه الحفر؟، "هذه هي حفر فار الأرض". وسألت مجددا أليس هو نفسه الجربوع الذي يأكله البدو؟ وصاحوا بلى بلى مبدين تعجبهم من أنني سمعت عن الجربوع. وفي ما يتعلق بهذا الحيوان لم يتأتَّ أن أعرف عنه بيقين، سواء على الضفة الغربية للبحر الميت أو الضفة الشرقية منه.

وعلى هذه الجبال تنبت من بين الشجيرات القليلة نبتتان تعرفان باسم روجل وأوديب، ومنهما يستخرج الإنسان نوعا من الصودا الكاوية. ولكنها أردأ من الصودا التي يستخرجها الإنسان من حرق بعض أنواع النباتات التي تنبت عند أسفل شاطئ البحر. أما الاوديب فهي نوع من سلكورنيا أو الصمغ الزجاجي، وهي ذات لحاء رمادي اللون ضارب إلى البياض.

بعد ساعة ونصف وصلنا إلى حافة الجبال الجرداء التي تحف بالبحر الميت من كلا جانبيه، وتنحدر مكونة جرفا صخريا هائلا. فيه ممر صخري منحدر غاية في الوعورة، لن يكون بوسع غير العارف أن يجده. والى الأمام، وتحت أقدامنا، تتموضع

عين جدي[vii] عند أسفل الجرف الصخري العظيم، وتبرز عيونها من خلال أجمات الأشجار والشجيرات، التي تتميز بخضرتها الفائقة المختلفة تماما عن محيطها البري. والى اليسار أشاروا لي إلى ممر صخري أكثر صعوبة يقود إليها. وتجلل صفحة البحر زرقة داكنة أخاذة، يحيط بأطرافها زبد أمواج البحر الفضية. التي سرعان ما تتكسر عند الشاطئ. وعلى سطحه تنتشر أمواج فضية مماثلة، مثل إكليل من الزهور البيضاء المتفتحة. وعلى ضفة البحر الأخرى ترتفع الجبال السامقة لأرض البلقاء والكرك، وبينهما أرض منبسطة قبالتنا تماما، تشير إلى مصبات الوديان العميقة المقفرة، التي يجري فيها نهر الموجب أو أرنون. والى الشمال منها أشاروا إلى الجرف الصخري العظيم الذي يطلق عليه "طور الحمار"، الذي ينز الإسفلت عند أقدامه، والى الجنوب من الموجب تعرفنا على وادي الكرك. أما الكرك نفسها، والتي يمكن للإنسان في الأحوال العادية رؤيتها، فقد لفها جو من الضباب. والى أقصى الجنوب تراءت لنا جزيرة كبيرة، لا يعرف الناس عن وجودها، لان الإنسان لم يصلها لندرة القوارب. وجاء البرهان لاحقا على الملاحظات التي أخذتها في المكان، بأننا أخطأنا بخصوص تلك الجزيرة، وأن رجالي كانوا على عدم يقين حول ذلك. بعد ذلك يظهر غور الصافي وجبل الملح أو جبل اصدم بوضوح في النهاية الجنوبية للبحر. ويبعد مسافة مسيرة يوم ونصف عن عين جدي.

ويحيط بعين جدي سهل صغير يمتد قليلا باتجاه الجنوب. ويتفاوت عرضه ما بين 5 إلى 10 دقائق. ويقوم عرب الرشايدة بزراعة الأرض حول عين جدي، التي يدخرونها لأنفسهم. وهم يزرعون القليل من القمح والذرة والكثير من الخيار، ويذهبون به إلى القدس، ذلك أنه مطلوب جدا، لأنه ينضج قبل عدة أسابيع من الخيار في القدس.

وفي منطقة الصخور البرية على امتداد الضفة الغربية للبحر الميت وفي الجبال القريبة، تعيش الغزلان والخنازير البرية والتيوس البرية والوبر (هيراكس سيرياكوس). وحسب تأكيدات مرافقي العرب يعيش فيها أيضا النمر والضبع والثعلب وحيوانات برية أخرى. أما الأرانب فغير متوفرة في هذه المنطقة الجبلية، ذلك أن طبيعتها مخالفة تماما للعيش في الجحور الصخرية، التي تحولت مع الوقت إلى جحور للوبر. وقد أطلقت عليها اسم كليبداس، حسب أمثلة السيد كونت ميلين الذي أطلق عليها هيراكس كابنزيس ل. كليبداس.

ورغم أنني ترجلت، فقد كان صعبا على البغل النزول في الممر الصخري. وكنا أكثر من مرة متوجسين من أن تدق عنقه، ويمكن للمرء أن يتصور بسهولة العناء الذي يكابده الرشايدة والبدو الآخرون والفلاحون في عملية نقل الملح إلى الشاطئ، حيث تستخدم الحمير لهذا الغرض، كسائر المنتجات الأخرى. وفي الساعة الثامنة وصلنا إلى نبع عين جدي الصغير، ويقع أسفل جبل صخري. ورغم أن الماء صاف، فلم أجد برودته منعشة، وشعرت بأنه فاتر قليلا، أو كما يقول الناس عندنا أنه ذو مذاق غض. بيد أن برودة الصباح والهواء البارد، القادم من منطقة الجبال، ربما أسهمت في ذلك أيضا. فقد تعودت يداي على برودة أشد. ويتحد هذا النبع بعد مسافة قصيرة من منبعه مع نبع أكبر، يسيل على بعد مسافة قصيرة من أرض صخرية، ويصب بعد ذلك في البحر.

كانت حواف النبع الصغير مسيجة بالقصب والشجيرات وتظهر نماءاً ونظرة فائقتين. ويرى الإنسان من خلال ذلك بأن حافة البحر لا تخلو من الخصوبة، حين تتوفر مياه كافية وأرض منبسطة. واقتنعت بأن الإنسان يجد هنا النباتات المتفتحة في كل مكان، كما هو الحال في القيظ الاستوائي تقريبا، الذي يسود هنا في فترة الصيف. وسهل عين جدي الذي يستغل جزء صغير منه فقط، يمكن أن يستغل كله للزراعة بسهولة. وإذا ما توفرت القليل من الرغبة عند البدو فان الطبيعة ستمد يد المساعدة. ولان هذين النبعين فواران، يمكن للإنسان أن يتحكم بالمياه بواسطة طاحونة ماء بسيطة، من أجل ري السهل كله. ولكن بما أنه من النادر أن يقوم هؤلاء الناس بزراعة جزء صغير من الأرض الخصبة، فكيف يمكن التوقع بأن يقوموا بالتفكير في استعمال الطرق الاصطناعية لزيادة الخصوبة. وما زال الإنسان يرى على بعد مسافة قصيرة تحت النبع آثار أحواض جمع المياه المقصورة

والمتهدمة، كدليل على أن سهل عين جدي كان مستغلا في الماضي بشكل أنجع. وينمو شجر السدر[viii] (راموس زيزيفوس) هنا بكثرة. وقد وجدت هنا بقايا التين البري وشجر الرمان وفستق البان ونبات الست المستحية (ميموزا) والعشير[ix] (أسكلبياس جيجانتيا ل.)، ونوعا من النباتات الخيمية ذات الغصون المشوكة (سولانم ساكتوم ل.) والتي يطلق عليها البدو اسم السكران.

وعين جدي هي المكان الوحيد المعروف، الذي يجد الإنسان فيه تفاح سدوم[x] (العشير) المشهور. وأكد لي بطرس وبقية التلاحمة الآخرين بأن الإنسان لا يجد هنا هذا التفاح فقط، ولكن أيضا الكمثرى والرمان والتين والسفرجل والليمون...الخ. ومنظره جميل من الخارج، أما محتوياتها من الداخل فلا تزيد عن غبار أو رماد خفيف، وهي لا تحتوي على لب. وكان تاجر من يافا، وهو نائب القنصل، قد جلب قبل عدة سنوات بواسطة رجل من بيت لحم سلة مليئة بهذه الفواكه إلى يافا. وأكد لي كل شخص التقيت به في بيت لحم تلك الصفات المذكورة. ويمكن أن يتبادر للمرء بسهولة بأنه من خلال هذا الخبر المؤكد، قد استثير حب استطلاعي إلى حد كبير، وكان أول تحرّ قمت به في عين جدي هو عن هذه الثمار العجيبة.

إن مرافقي الرشيدي، الذي تتبع عين جدي لقبيلته، ويزورها بضع مرات في السنة هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يفيدني بالخبر اليقين. ذلك أن مرافقي الآخرين لم يسبق لهما أن زارا هذا المكان. والرشايدة حتى الآن يأتون بهذه الثمار إلى بيت لحم ويكسبون ببيعها بعض النقود القليلة. ورغم الكسب القليل، فكان للرشيدي مصلحة ذاتية في التعريف بتفاح سدوم. وقد أراني بعد وصولنا مباشرة بالقرب من العين بين القصب وأجمات الأشجار، شجيرة ذات أوراق عريضة، وجدنا عليها بعض الثمار التي سماها تفاحا. ولم يتبق من بعضها سوى أغلفتها الجافة، والى جانبها مباشرة شجيرة صغيرة شوكية تحمل ثمارا تشبه في صفاتها الحمضيات، والتي اعتبرها مرافقي حمضيات حقيقية. وعند فتح الثمرة لا يجد الإنسان في باطنها سوى كمية من البذور في مزيج مخاطي أو شبيه بمهروس البطاطا. أما أنواع تفاح سدوم الأخرى فلم يتعرف عليها. كما أكد لي بأن حب الرمان والتين لها نفس الصفات المعروفة. وهذه لم تكن الحقيقة بالتأكيد. لكن لم يكن باستطاعتي أن أثبت له ذلك فيما يتعلق بالأولى، لان أشجار الرمان لم تكن تحمل الأثمار. أما بالنسبة للأخرى، وهي شجرة التين الوحيدة النامية التي وجدتها، فباطنها يحمل نفس الصفات التي تحملها باقي أنواع التين البري في أرجاء العالم.

ولابد وأن قرائي يتشوقون أن أعرفهم عن قرب على هذين النوعين من تفاح سدوم.، وهذا ما سيكون.

فالشجيرة الأولى تعرفت عليها بالنظرة الأولى كشبيه ل(العشير) أو أشجار الاسكلوب (أسكلوبياس جيجانتيا ل.) الضخمة، التي سبق وعثرت عليها في الربيع بالقرب من غور الصافي عند النهاية الجنوبية للبحر الميت. ولهذه الشجيرة الغريبة، التي يجدها الإنسان أيضا في شرق الهند والجزيرة العربية ومصر وحتى في جامايكا أيضا، هناك وصف شامل مصور في كتاب النباتات الثمين للينيس بعنوان الوصف الكامل للنظام النباتي (خمسة أجزاء، ص 775، لوحة 44). وهذه الاسكلوب لها هنا حجم شجيرة ناهضة، بدلا من حجم شجرة التين المتوسطة، كما رأيتها في غور الصافي. وأغصانها ذات لون أخضر فاتح ومليئة بالعصارة مثل ساق النبتة. وهي كثيفة بشكل غير اعتيادي وذات أوراق كالجلد عريضة متطاولة بيضاوية، أو بالعكس دائرية بيضاوية ومتطاولة، وتحيط قاعدتها بالساق. وتقف متقابلة زوجا زوجا دائما، وكل زوج يبتعد عن الآخر بعرض الإصبع أو البوصة. لهذا يرى الإنسان الساق بصعوبة. ويتراوح طولها ما بين أربعة إلى ستة بوصات ونصف البوصة، وفي الأعلى حيث هي أعرض ما تكون، يتفاوت عرضها ما بين ثلاث بوصات ونصف وأربع بوصات ونصف. والفرع الصغير الذي يحيط بقاعدة الساق من كل جوانبه دائري، لها قمة صغيرة من الأعلى. وحوافها مسننة، وذات بريق خفيف، وهي ملساء أو خضراء فاتحة. وعروق الورقة بيضاء، وتتوزع منها في خطوط متعرجة باستقامة تقريبا ومتداخلة بالعروق وجزئيا معاكسة لها. والأوراق والأغصان والساق والثمار

مليئة بعصارة حليبية بيضاء، وتسيل بغزارة عند كسرها أو قطعها، وطعمها غير حاد عند تذوقها باللسان. واللحاء متشقق على السيقان القوية وأقل تماسكا من البيلسان. ولم أجد زهورا لها.

إن الغريب في هذه النبتة هو في ثمارها، وهي بحجم رأس طفل صغير. وقد وجدت ثلاثة حبات في مجموعة قريبة من بعضها البعض، وعنقها بطول بوصة تقريبا، وتتكون من قشرة منكمشة. وعند قاعدتها يقع كأس الزهرة الذابل، ويمكن فصله بسهولة، ويتكون من خمسة بتلات، وقمتها ذات لون بنفسجي. ويرى الإنسان بوضوح بأن أغلفتها قد انفجرت وتطايرت منها دودة القز. وقد واتتني الفرصة لاحقا أن أرى الكثير من الثمار الناضجة، وهي ذات لون أخضر من الخارج، وإذا ما فتحها الإنسان يجد في باطنها ألياف منفوشة من عدد لا يحصى من الخيوط البيضاء المتشابكة. أما غلافها الخارجي وجسمها فمتطاول على شكل المغزل، حيث توجد البذرة على شكل القشرة فوق بعضها البعض، وتتوسطها خيوط الحرير اللامعة مربوطة بقطب داخلي. والقشرة التي تحفظ البذور لونها أصفر من الداخل. أما الحرير فوزنه خفيف جدا ويتطاير عند كسر الثمرة سريعا. ويصنع البدو منها فتائل بواريدهم. وهي سريعة الاشتعال. في الوقت نفسه تقوم النساء بخلطها مع القطن وتجهز منها نوعا من عصابات الرأس. ويذهب الناس بعصارتها اللبنية إلى أديرة الروم الأرثوذكس في القدس. أما إذا ما كان يساعد النساء على الإخصاب، فليس بوسعي تأكيد ذلك حقا. كما يعتقد بأنها نافعة ضد الطفح الجلدي.

ويرى القارئ من خلال هذا الوصف بجلاء أن الحديث لا يجري عن التفاح أو الكمثرى، ولكن عن ثمرة طبيعية تماما لنبتة معينة. وهي نوع مكتمل، مثلها مثل الثمار الأخرى في العالم. والآن سأتعرض بالوصف إلى ثمرة أخرى تشبه الليمون.

لقد وجدت هذه النبتة التي تشبه أزهارها نوعا من النباتات الخيمية، ليس هنا فحسب، ولكن بعد ذلك بكميات كبيرة بالقرب من أريحا. وهي عبارة عن شجيرة صغيرة ذات فروع معوجة جارحة. ولونها ضارب إلى الصفرة، وأوراقها ذات شكل بيضاوي وحوافها مذنبة ومسننة. وساق الورقة، وطوله نصف بوصة فقط، لا يقع في وسط القاعدة تماما، لذلك فان الورقة تميل على جهة أكثر من الأخرى. ولون الورقة رمادي ضارب للخضرة. والجزء السفلي منها أقل دكنة من الجزء العلوي، وهي مغطاة دائما بالزغب، وخصوصا الجهة السفلى منها. وتحمل النبتة الورق والثمر في نفس الوقت وبكميات كبيرة. وأزهارها بنفسجية ضاربة للزرقة. ويبلغ قطر فتحتها حوالي البوصة. وكأس الزهرة مقسمة إلى خمسة أقسام، وساق الثمرة، وهو شائك، بطول بوصة. وثمارها بحجم حبة البرقوق المتوسطة. وهي بلون الحمضيات الأصفر الجميل، ومكورة تماما. وقشرتها الخارجية لامعة ورقيقة. وداخل الثمرة طبقة لحمية، ذات سمك متوسط. وفي داخلها يجد الإنسان كميات كبيرة من البذور على شكل الكلية بلون بني ضارب للصفرة في عصارة مخاطية في الفلقتين وحواليها. وسيتعرف أخصائي النباتات من هذا الوصف سريعا لى أن هذا الثمرة العجيبة ليست سوى نبات الظل الليلي المقدس (سولانوم سالكتوم ل) الذي يجده الإنسان أغلب الظن في سهل وادي الأردن، وربما أيضا في مناطق أخرى كثيرة من فلسطين، ومنه نقل الإنسان نماذج إلى البيوت الزراعية الأوروبية. ويطلق البدو على هذه النبتة اسم السكران[xi]، وبما أن هذه التسمية مشتقة من السكر في اللغة العربية، لذلك أظن بأن الإنسان قد تعرف من خلال التجربة على التأثير السام لهذه الثمرة، وهو التأثير المعروف لكافة أنواع الخيميات.

انه لمن المثير للعجب كيف استمرت الروايات حول تفاح سدوم محفوظة على مدار آلاف السنين. ولكن يمكن بالتأكيد اعتبار بعض الأحكام المسبقة طبعا دونما أساس بالمرة. ولكن، هل يمكن أن يتوقع الإنسان مراقبا بدون أحكام مسبقة.، خاصة وأن المعلومات في العادة تأتي من الرهبان للحجاج الأتقياء، والذين هم جهلة أحيانا، وأحيانا أخرى يسعون لنفعهم الخاص لمكافحة الأحكام المسبقة لإعطاء صورة رائعة عن بلادهم، وإثارة الفضول الكبير لدى الغرباء. والرواية كلها يعود أساسها

لذكرها في موقع واحد في الكتابات العبرية القديمة، حيث يرى الإنسان كيف أن هذه العجيبة تتوالى آلاف السنين، لأنها موجودة في الكتاب المقدس، الذي تربينا على إكباره عاليا.

وتساقط مطر خفيف، ولكن لفترة قصيرة.

وأشاروا لي على بعد عدة دقائق من العين الكبيرة باتجاه الجنوب إلى موقع عين جدي القديمة، الذي يمكن للإنسان فيه حتى الآن مشاهدة أطلال البيوت القديمة. ومن عند هذا النبع صعدنا مع أقدام الجبل، ووصلنا بعد عدة دقائق إلى جدول صغير، يشكل العين الكبيرة، التي تنبجس من بين الصخور التي تقع فوقها باتجاه الشمال. وعلى ضفاف هذا الجدول يرى الإنسان بقايا مبنى يطلق عليه الناس اسم "الدير"، والذي يشير إلى أن ديرا كان قائما هنا في الماضي. وينمو القصب (أرندو دوناكس ل) في مجرى الجدول وعلى ضفافه، وهو طويل وكثيف للغاية إلى حد أنه ليس من اليسير شق طريق فيه. وتظهر النباتات الأخرى بين القصب شبق الخصوبة.

وتمنح حواف الجبال الصخرية العارية، والهاوية المهشمة التي تحيط بالبحر من جميع جوانبه، مشهداً مروعاً. ولا يرمق الإنسان في البعيد أية آثار للنبات عليها، هذا بالرغم من أنني أثناء صعودي إليها عثرت بين الصخور على بعض النباتات المتناثرة. ولا يستطيع الإنسان أن يتخيل بأنه من الممكن النزول منها أو الصعود إليها، وفيها تعيش الخنازير البرية، حيث شاهدت بنفسي خنزيرا منها، ويطلق العرب على هذا الحيوان اسم النيص.

وعلى الضفة الشمالية لهذا الجدول وجدت لسروري وردة أريحا[xii] (أناستاتيكا هيروشنتكا ل) على ارتفاع بسيط، وتبدو يابسة وهرمة جدا. وهي معروفة هنا باسم كف مريم. ويحملها بدو الرشايدة إلى بيت لحم، ويبيعها أهل بيت لحم للحجاج في القدس مقابل القليل من النقود. ويعثر عليها الإنسان، كما عرفت ذلك من التجربة في المناطق القاحلة حوالي البحر الميت، ولكن ليس بكميات كبيرة. وكان محمد أحد مرافقي من بدو التعامرة قد قال لي قبل ذلك، بأنني سأجدها في هذا المكان. وبقيت متشككا حتى أشار إلى المكان الذي قمت بنفسي بجمعها منه.

إن هذه الطبيعة الساحرة تجعل من عين جدي صومعة متبتل، يحف بها البحر من جهة، وقفر الصحراء الخالية من جهة أخرى، متميزة في خلقها عن بقية بقاع الأرض كافة. وفي كل وقت حيث استطاع الإنسان تسيير ماء النبعين أمكن له زراعة جميع الأراضي بالنباتات. وقبل بضعة آلاف السنين كان هذا التوافق السعيد ممكنا، وطبقت شهرة عنب عين جدي الآفاق.

وماء العين الكبيرة حتى بعد منبعها نظيفة وذات مذاق عذب، وكلما اقتربت من ضفة البحر كلما صارت أكثر رداءة. وهي تمس جذور القصب وتنساب بين مختلف النباتات المتعفنة، مكتسبة رائحة المستنقع غير المحببة.

كانت الساعة هي التاسعة وعشرون دقيقة حين غادرنا عين جدي. وتوجهنا من الآن، ودائما، صوب الشمال على طول شاطئ البحر، الذي كانت أمواجه أحيانا ما تبللنا. وفي أماكن مختلفة ينبت نوع من أشجار (ساليكورينا) بكثرة. وكانت الطريق في الممرات التي لا يطرقها رائح أو غاد صعبة بالمختصر، لان الجبال تلامس البحر مباشرة، ولا تترك غير مساحة ضيقة بالكاد تسمح بمرورنا، وهي تتكون من أراضي صخرية وتغطيها قطع الصخور الكبيرة والحجارة. وفي مرات عديدة شاهدت بعيني الخطورة المحدقة عند التسلق. هذا بالرغم من أن البغل كان دون مقارنة، يقفز على كتل الصخور بحذق، مثل الماعز. وتتكون أقدام الجبال بشكل رئيسي من رصيص من الحصى من الصخر الطباشيري وحجر الصوان. وفي أماكن عدة فان هذه السلسلة من رصيص الحصى ذات لون أسود، كما لو مسها بترول أرضي. لا بد وأنه متوفر في الجبال القريبة. وهي إمكانية ليست غير محتملة، حين يرى الإنسان بأنه على هذا الجانب يوجد الحجر المعروف باسم حجر النبي موسى، الذي سأتحدث عنه في مكان

لاحق. ولهذا قمت في هذه الأثناء بجمع عينات كافية من مختلف صخور الجبال المحيطة بالبحر الميت، وهي موجودة في المتحف الشرقي لغوته، إضافة إلي عينة من رصيص الحصى، بما يمكن المرء هناك من إجراء التحليلات الدقيقة على هذه العينات، وذلك بما تسمح به الأدوات المساعدة والوقت. والحجارة السوداء ملقاة بكميات كبيرة على الشاطئ.

وفي تجاويف الطبقات الصخرية الملساء الواطئة التي تغمرها مياه البحر عند ارتفاع مستواه، والتي ما تزال عرضة لرشق الأمواج، فقد وجدت طبقة متراكمة من الملح بسمك أصابع الكف. وكانت قد بدأت في الذوبان بسبب المطر. وتحت الكثير من الصخور الشاهقة تكونت أكواز من الملح النقي بطول القدم أحيانا. والتي تشبه إلى حد بعيد أكواز الجليد عندنا [في ألمانيا]، ولكنها أقل نفاذا وشفافية. كما يجد المرء مثل أكواز الملح هذه في بعض نقرات الماء عند الشاطئ السهلي في عين جدي أيضا. أن أكواز الملح هذه، ومثيلاتها هي التي يقوم البدو والفلاحون بجمعها وبيعها في المناطق المجاورة. ويأخذ بعض البدو حاجتهم من الملح من جبال الملح عند النهاية الجنوبية للبحر الميت (من جبل الملح أو جبل أصدم). ولا يجري الحديث هنا عن أساليب اصطناعية لاستخراج الملح، وليس واردا حفر الخنادق أو ما شابهها. فهذا العمل غير معروف عند البدو، وهو غير ضروري أيضا، ذلك أنه بدون أساليب اصطناعية يمكن استخراج كميات وفيرة من الملح تكفي حاجة سكان هذه البلاد.

وفي بعض الأماكن لاحظت رائحة كريهة نفاذة مثل رائحة حمامات الكبريت. وهي تنبعث من النباتات المتعفنة في مجاري السيول، التي تصب عبر نهر الأردن أو مجاري الوديان الصغيرة في البحر، وتحذفها الأمواج إلى الشاطئ. ويرى الإنسان هنا العديد من جذوع الأشجار والفروع على امتداد الشاطئ الغربي للبحر، وفي أماكن مرتفعة عن مستوى السطح الحالي للبحر. ولاحظت من بينها جذوع أشجار الصفصاف وأشجار أخرى اجتثت أثناء موسم الأمطار، وجرفتها سيول الوديان إلى هذا المكان، ومن ثم بقيت ملقاة هنا مع ارتفاع شاطئ البحر. وبما أنني لاحظت أن منسوب بعض مجاري السيول متفاوتة، فيمكن الاستنتاج بأن البحر لا يتلقى نفس كميات الماء كل سنة، وعليه فان مستوى ارتفاع سطح البحر متغير. وبما أن الإنسان يجد ما يكفي من الأشجار والشجيرات، التي تشكل لزوار البحر النادرين ما يكفي من مادة الوقود لتدفئتهم وتحضير خبزهم، فإنها تبقى فترة طويلة غير مستعملة، إلى أن تتهالك مع مرور الوقت.

وأثناء سيرنا على طول الشاطئ تركز اهتمامي على أن أكتشف، قدر الإمكان، أي نبتة أو حيوان في عرض البحر. وذهبت كل جهودي سداً. ولم أجد أدنى أثر للحياة الحيوانية أو النباتية. أن هذا الموات التام هو ميزة خاصة لهذا البحر العجيب، تميزه عن بحار الأرض كافة. إنه الموطن الأبدي للموت، والاسم المختصر، البحر الميت يليق به.

أثبت مستشرق ألماني كبير (ميخائيليس) في كتاب هام، بأنه لا يمكن للسمك العيش في البحر الميت، وتوصل للبرهان بسهولة، حين علم بأنه لا يوجد فيه أي نوع من الغذاء. وإذا ما انتقل إليه بيض السمك من خلال الطيور، فان صغار السمك لا بد أن تلاقي حتفها بسبب قلة الغذاء. ومن أجل الاستنتاج المنطقي على المرء أن يبحث عن البراهين. ولماذا لا يجد الإنسان خيوط الماء أو السبخات أو عشب البحر... الخ؟. لان النباتات توفر الأساس للحياة الحيوانية. سواء كانت على اليابسة أو في البحر. ودون ذلك لا يمكن لأصغر الكائنات القارضة للنباتات كالحشرات والديدان أن تعيش، وعندما لا تكون هذه موجودة ينتفي الأساس لوجود الحيوانات الكبيرة. وإذا ما كان باحث الطبيعة السويدي الفاضل هاسلكويست قد وجد قواقع وحلزونات بحرية على شاطئ البحر بكثرة، وهو ما أكده السائح موندريال، وذلك ضمن افتراض منشئها البحري، فإنني أجد نفسي مضطرا أن أخالف هذا السويدي الفاضل بخصوص الحلزونات، لأنني لم أجد أي أثر لها، رغم أنه أتيحت لي فرصة أكبر بكثير منه لملاحظة شاطئ البحر. أما في ما يتعلق بالقواقع فانه مصيب بأن الإنسان يستطيع رؤيتها وفي أكثر من موقع، بكميات كبيرة على شاطئ البحر. ولكنها ليست قواقع البحر المالح بل نوع أو نوعان من القواقع الأرضية (هيلكس)، والتي سبق ورأيتها حية على الجبال المجاورة.

وهي تتغذى على النباتات القليلة في هذه المنطقة البرية. والى جانب هذين النوعين من القواقع يرى الإنسان بالتمحيص الدقيق في ينابيع عين جدي نوعين آخرين من قواقع المياه الحلوة السوداء الصغيرة، إحداها (كنكهولرن) والأخرى (نيريت). ولا اقدم هذا على وجه التأكيد، لأنني لم أبحث عنها هناك، لذلك لم أعثر عليها، ولكنني أظن بأنها متوفرة هناك. لان الإنسان يعثر عليها بكثرة في ينابيع أريحا، وفي مواقع كثيرة أخرى.

لقد عزى الأقدمون والمحدثون هذا الموات الغريب إلى الملوحة العالية لمياه البحر الميت، وإنني أوافق على ذلك بكل صراحة. ولكن سواء كانت محتويات ملح ماء البحر تحوي بداخلها دونما اعتبار لعالم كامل من الحياة الحيوانية والنباتية، فانه يبدو أن درجة معينة من الملوحة متطلبة. وإذا ما تجاوزت ذلك فان جميع الكائنات الحية تنتهي. وهكذا يبدو الحال مع البحر الميت، فمياهه شديدة الملوحة حد أنه يشبه الملح ومذاقه يشبه محلولا ملحيا مركزا. ويجب البحث عن أصل هذه الملوحة الغريبة قبل كل شيء في جبال الملح الواقعة في جهته الجنوبية، التي يتعرض مخزونها من الملح للذوبان عبر مياه الأمطار منذ آلاف السنين، فتأخذ طريقها إلى البحر على شكل محلول ملحي، تزيد كميته بكثير عن الملح الذي يأخذه الإنسان من شواطئه كل سنة.

وماء البحر الميت، على كل حال، صاف وشفاف كماء البحر العادي. وعلى سطحه ترتسم شتى ظلال السماء، والتي يلحظها الإنسان على أي بحر. وجميع أخبار الحجاج والرحالة السابقين الأخرى التي تتناقض مع هذه المعلومات، ما هي إلا محض خرافات، ولا تستأهل الرد.

في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة توقفنا لتناول الإفطار عند ملجأ صخري. وقام واحد بتكسير شجيرة جافة وأتى بها لإيقاد النار، وقام آخر بإشعالها، وثالث بتحضير العجين من الطحين الذي جلبناه معنا على الطرف الداخلي لفروته الصوفية ذات الجزة القصيرة، وأضاف إليه الملح مما وجدناه على شاطئ البحر. ومن هذا رق كعكة كبيرة وسميكة، وسرعان ما وضعت في وسط الرمضاء. وحط رابع قربة الماء على الأرض وضغط عليها مشكلا تجويفا بسيطا وصب فيها قليلا من الزيت والدبس معا، لأننا لم نحضر معنا صحونا أو ملاعق، بينما كنا في انتظار الخبز الساخن. وهكذا صار فطورنا جاهزا. وهنا علي أن اعترف بأنني لا أذكر أنني أكلت بشهية كالتي أكلت بها هنا.

وتساقط مطر خفيف، وتوقف بعد وقت قصير.

في الساعة الثانية عشرة تابعنا المسير، وأصبح الطريق الضيق على الشاطئ مرة أخرى شديد الوعورة. وبعد مضي ساعة بدأ الشاطئ في هذه الأثناء في الانفراج نحو البحر مشكلا سهلا ضيقا، يتراوح اتساعه ما بين عشرة إلى خمس عشرة دقيقة. وفي بدايته كان محصوصبا وعديم الخصوبة. ويثبت وجود أرنب قفز أمامنا أن المنطقة ليست ميتة تماما. وقد وجدت هنا شجرة الست المستحية (ميموزا) بحجم معتبر. وبعضها من النوع الذي يطلق عليه العرب اسم زيال وبعضها الآخر اسم طلح. وجذعها قصير ولكن هامتها منتشرة بما فيه الكفاية وهي مستوية من الأعلى.

في هذا الهدوء الذي لا يعكر صفوه شيء، ما إن قطعنا تقريبا نهاية السهل الصغير المنزوي ، حتى أصيب مرافقي بحالة من الذعر المفاجئ مرة واحدة، وأطلقوا سيقانهم للريح مرتدين بسرعة إلى الوراء. ولوح لي بطرس صائحا بأن أتبعه. ورغم أنني لم أرى سببا محددا لهذا التصرف الغريب ، فقد ظننت بالطبع بأننا قد وقعنا في ورطة خطيرة. ولويت زمام بغلي دون لأي وقدته بكل سرعته. لكن لم تجد اللكمات والضربات نفعا كبيرا معه. فلم يدرك هذا الحيوان المسكين بأنه من الملح العودة

القهقرى بسرعة تفوق سرعته في طريق المجيء. وبعد الركض لبضع دقائق سمعت عن بعد صيحة وحشية خلفي، ما لبثت أن اقتربت مني. وهنا تيقنت بأننا وقعنا في قبضة قطاع الطرق.

ولأنني اعتقدت بأنني يمكن أن أركض أسرع من هذا الحيوان المزاجي، الذي سيكون الأمر بالنسبة له سيان سواء تبعنا أو تبع قطاع الطرق، لأنه سيظل مستعبدا على أي حال، فقد قفزت عن ظهره بسرعة وحاولت اللحاق بأتباعي. ولكن ركضي كان موزونا بصورة سيئة، لأنه ولسوء الحظ كانت جيوبي محشوة بالحجارة والنباتات، التي صارت، بالإضافة إلى فروتي وجيوب بنطلون سروالي، عائقا لركضي، إلى أن أدركت بسرعة بأن جهودي ميئوس منها. وعندما أصبح صوت ملاحقي الذي أمرني بالتوقف قريبا جدا مني، فكرت بأنه سيتبع أمره بطلقة بندقية. ولهذا قررت التوقف والاستسلام إلى قدري. وفي هذه اللحظة شعرت بأن يدا بشرية تنقض علي. وعندما استدرت تبين لي وجه رجل أسود. كان مسلحا ببندقية وعصا. وأمرني بنظرات وحشية، وهو يلهث متقطع الأنفاس بأن أخلع ملابسي، وبكلمات أخرى بأن القي ملابسي. وبما أنني بدوت له بطيئا فقد ساعدني بسرعة حد أنه مزق ملابسي أكثر مما خلعها. وبينما كنت منشغلا بذلك جاء أناس آخرون، بعضهم أسود البشرة وبعضهم أصفر ضارب إلى البني، مسرعين، والتفوا حولي بعضهم مسلحين بالهراوات والعصي المرفوعة بهيئة التهديد. في هذه الأثناء دسوا أيديهم في جيوبي باحثين عبثا عن نقودي التي تركتها في بيت لحم، وأخذوا ساعتي، ومزقوا عمامتي ..الخ. ولكن معظمهم لحق برفاقي الذي سعوا للحصول على مخبأ في الجبال. وحين بت على قناعة بأنهم لا يريدون أكثر من متاعي، جلست هادئا بينهم، مراقبا طريقة تعاملهم. وقد وضعوا بحرص دفتر ملاحظاتي وأوراقي الأخرى إضافة إلى مجموعتي من الحجارة والنباتات على كومة من الحجارة، وقال البعض للآخر "دعوا هذه له".

وفي حين كان هؤلاء منشغلين بي، فلم أتعرض منهم لأي سوء معاملة، لأنني لم ابد مقاومة، صاح صوت فجأة "توقفوا ! توقفوا بينهم واحد معرفة وصديق لنا". وسرعان ما أمسك فريق قطاع الطريق المطارد بجماعتي في وقت قصير، وتبين لنا بأن مرافقي الرشيدي يعرف عددا منهم. وضعتنا هذه المعرفة تحت الحماية وجعلتنا أصدقاء مثله تماما. وتجمع الكل على كومة من الحجارة حوالي. وكانوا واحدا وسبعين شخصا. وسألوني إذا كنت قد فقدت أيا من أغراضي. ورغم أن الأغراض المسروقة وقعت في يد أكثر من شخص، وأنني لم أقدم أية بينات حولها، ورغم أن كل واحد منهم كان راغبا في الاحتفاظ بالقطعة المسلوبة. فقد تقدموا إلي واحدا اثر الآخر وسلموني الأغراض المسروقة، بنظرة ضاحكة كما ذكرت. ومع ذكر كل قطعة نادى قائدهم بصوت عال "يا جماعة يا أصدقاء اذكروا النبي ومن عنده هذه أو تلك (وكان يذكر اسم الغرض) فليعده إليه"، وبهذه الطريقة استعدت جميع أغراضي، والتي لم يضع حتى أصغرها.

وقد جلسنا لبعض الوقت معا، وتندروا ضاحكين على مغامرتنا. وكان أمرا رائعا مع هؤلاء الناس. وقد أكدوا بقلب مفتوح، أنه لو لم يكن بيننا معارف لهم لكنا قد سلبنا جميعا. وكان هؤلاء اللصوص من عرب حاتم، الذين يقيمون في المناطق الشرقية والشمالية لدير مار سابا للروم الأرثوذكس وفي مناطق الغور حول أريحا، وتحالف معهم بعض بدو شرق الأردن. وكانوا قبل عدة أيام في مهمة في منطقة تقع إلى الجنوب من عين جدي، عند عرب الخريشه، الذين يقيمون في الجبال، ولا تزيد مضاربهم عن سبعة خيام، أخذا للثأر لأنهم متهمون بسرقة عدد من الأبقار منهم. وكان قد سبق لهم في إحدى المناسبات أن قاموا بقتل عدد من أفراد هذه القبيلة المعادية.

وتزودوا في مهمتهم هذه بقليل من الطحين، ليصنعوا منها خبزهم، الذي يشكل غذائهم الوحيد. وكانوا جميعا يرتدون قمصانا خشنة من القطن الأبيض، وفوقها غالبا عباءة قديمة ممزقة، يشدونها بحزام جلدي على الوسط، وعليه يربطون خنجرهم وعلبة

البارود. وهم لا يرتدون البنطلونات. وكانت الأرجل والأقدام عارية عند معظمهم، والقليل منهم ينتعلون الأحذية. وكان نصفهم مسلحا بالبواريد ذات الفتائل.

كان اسم قائدهم أحمد بن ناصر، وهو رجل قوي البنية وفصيح اللسان في أواسط العمر، ويتميز بلياقته. وكان أيضا مسلحا بهراوة قصيرة، ويعرف كيف يصيب هدفه عن بعد. ويرتدي فوق عباءته فروة أيضا. وكان بين جماعته كثير من السود، الذين يشكلون نصف قبيلة حاتم. ولأنني أثناء المشاهد الأولى لأسري قد استسلمت لشخص أسود، فقد اعتقدت بأنني محاط من قبل مجموعة من البدائيين في وسط أفريقيا. ولاحظت القليل من الأشخاص ذوي البنية القوية بينهم. وكان معظمهم نحيلا وذو هيئة لا تشي بالقوة الجسدية، رغم أن مسيرتهم المنهكة قد أسهمت في ذلك. ونصيبهم من الخبز يكون في هذه الحال قليلا جدا، لهذا فهم جياع على الدوام. وعند الوداع كان لا بد من إعطائهم بعضا من الطحين والتبغ، وهم يتعلقون به بشدة مثلهم مثل معظم البدو. وتمنوا لنا سفرا ميمونا، وواصلوا سيرهم باتجاه الجنوب.

وبمناسبة هذه المغامرة فإنني أستميح العذر لنفسي بالتعليق على قطاع الطرق المحليين والأوروبيين.، والذي يمكن أن يكون الدليل على أن الكمال له نقائصه. إن العناية غير العادية التي يوليها البوليس الأوروبي للأمن العام، والعقوبة القاسية التي لا يمكن تفاديها التي تهدد السارق، إذا ما اكتشف أمره، تجعل من هؤلاء الناس أكثر خطرا بكثير من هنا. ويرى قاطع الطريق الأوروبي نفسه في كثير من الأحوال مضطرا للقسوة، بما في ذلك القتل، لحماية نفسه، و تفادي الوشاية به. وكقاعدة أيضا يكون المسلوب غير مسلح، ولا يكون قادرا على الدفاع عن نفسه. أما قاطع الطريق المحلي هنا فعلى العكس من ذلك. وهذا يصح على البدوي بدون استثناء تقريبا، فانه لا يضطر إلى مثل هذه الأساليب المروعة، إذ أنه لا يتخوف من أية عقوبة، كما أن هذا لا يسبب له بين معارفه أي حرج، لا بل أن الفخار ينتظر السارق. ولكن في الحالة التي تبدي فيه الضحية مقاومة عنيفة، فتصير حياة المهاجم نفسه محل خطر، فان قاطع الطريق يمكن أن يقدم في سورة من الغضب على هذه الفعلة، أما غير ذلك فلا. وقد تلقى بطرس في هذا السياق درسا صغيرا، إذ حاول أثناء أسره إبداء المقاومة، واستل خنجره، فانهال شاب أسود بعصى غليظة على كتفه وذراعه، فظل يتألم لعدة أيام.

هذه التجربة التي جرت مع البدو تقدم الدرس لكل مسافر، بأن لا يبدي أية مقاومة في حال هجوم من هذا القبيل، لان الخسارة التي سيجنيها لا يمكن مقارنتها بخسارته لحياته. وحيث يكون هناك مجال للسفر في الأماكن التي يحذر فيها من هجمات البدو، على المرء أن يحرص دائما على أن لا يحمل معه أغراضا تكون خسارتها بالنسبة له لا تعوض، أو تكون مضاعفاتها مؤثرة عليه. إن البدوي هو لص إنساني حقا، وإذا لم تقاومه ستكون في أمان دائما. كذلك لا بد من التزود بالكثير من قطع الثياب، لضرورة الغطاء والدفء. عدا ذلك فان القضية الأهم بالنسبة للرحالة العلمي هي الحفاظ على مذكراته اليومية، وأوراقه الأخرى دون ضرر. وهكذا يختلف الموقف تماما عن موقف العربي تجاه أعدائه. فهو يظهر، في الغالب، في مثل هذه الحالات عنيفا، لا يبقي ولا يذر.

أعاقتنا هذه المغامرة مقدار ساعة ونصف. ولأننا اقتربنا الآن إلى نقطة على الشاطئ لا يوجد فيها ممر فقد اضطررنا إلى تسلق تلة صغيرة، وجدنا على حواشيها الجافة وردة أريحا مرة أخرى. في الساعة الرابعة إلا ربعا وصلنا مرة أخرى إلى شاطئ البحر، حيث يوجد نبع صغير في منطقة الشاطئ، ويطلق عليه عين الترابة. وكان الشاطئ المنبسط للبحر مخضرا بالأشجار والشجيرات والقصب، بفضل هذا النبع. وما زالت الجبال الصخرية هنا وعرة وموحشة كجبال عين جدي.

في الساعة الخامسة وعشر دقائق، وصلنا إلى نبع آخر يسمى عين الغوير، ويبعد هو الآخر مسافة قصيرة عن الشاطئ. وكان عرب حاتم قد أمضوا ليلتهم الفائتة هنا، فقد وجدنا آثار مواقد نيرانهم في بضعة مواقع. واقتيد بغلي في طريق جبلي وعر، في حين سرت بصحبة اثنين من مرافقي مشيا على طول الممر. وكانت النباتات حول النبع كثيفة حد أننا شققنا طريقنا بين الشجيرات والقصب بصعوبة بالغة، رغم أن عرب حاتم كانوا قد شقوا لهم طريقا بين القصب المقصوص. وعرجنا على مغارة هنا لقضاء ليلتنا، ذلك أن مخبأ موثوقا وآمنا لقطاع الطرق غير وارد هنا. إن كتاب قصص قطاع الطرق، سيجدون في هذا مادة غنية، لرسم صور مروعة

تزين حكاياتهم. وسرعان ما أشعلت النار، وتم إعداد القهوة، ومع الخبز الذي سبق إعداده تناولنا عشاءنا الاعتيادي مع الزيت والدبس.

وكان الأمر بالنسبة لي مسليا ملاحظة سلوك مرافقي الأربعة بعد المغامرة التي مررنا بها. فالجميع كان قد أصابهم الهلع، وكان باديا عليهم الضيق من خوفهم الذي كشفه هروبهم الجبان، وتركي وحيدا. وأبدى بطرس والرشيدي حساسية أقل لخوفهم من كلا التعمريين خليل ومحمد. وكان خليل يمزح ويتحدث كالثمل. أما محمد فقد بدا صامتا وخجلا ، لأنه أبدى خوفا أكبر، وهذا ما استفاض في الحديث عنه الآخرون. في هذه الأثناء حاول محمد أن يجد لنفسه عملا يشغله بعيدا عنهم، فسرح البغل وابتعد به. ولم يتحسر بطرس سوى على جرة النبيذ التي احتفظ بها لنفسه طوال الطريق، والتي انكسرت أثناء هجوم عرب حاتم. وكان هذا الأمر بالنسبة لنا سيان، فأنا لا أشرب الخمر، كما أن مرافقي البدو لا يشربونه لأسباب دينية. وبالإجمال كنا في حالة من الحبور، كما لو أننا عدنا للتو من حفلة إلى البيت.

بعد وصولنا إلى المغارة فورا بدأ المطر في الهطول. ومضت ساعتان في هذا المكان، في ما زال رجالي يتحادثون عن مغامرتنا. إلا أن تنبهنا فجأة على صوت جلبة خفيف في الدغل. وبعد بضعة دقائق سمعنا صوت مناداة على اسم أحد مرافقي العرب. وكان هذا صوت الشيخ أحمد، ولاحظنا الآن بأنهم لصوصنا، الذين اضطروا للعودة بسبب استمرار تساقط المطر.

كانت هذه الزيارة المفاجئة غير سارة لنا على أكثر من وجه. وبعد لحظة صارت المغارة تعج بأناس مبللين يرتعدون من البرد، ويطلقون أنات وحشية. جلس الشيخ أحمد بجانبي، وأولاني اهتماما كبيرا. وسرعان ما توهجت النار ، واستدار العرب حولها تاركين اللهب يلفح تحت ثيابهم، لتجفيف أنفسهم، وكانت آثار بعض الحروق بادية على ثيابهم. وما أن شعروا ببعض الدفء حتى أتي دور مجموعة أخرى. ولم يسبق لي في حياتي أن أمضيت ليلة مثل هذه مع جماعة طبيعية. وبدت الطبيعة كلها متوحدة مع هذا المشهد لتكمل هذه اللوحة الطبيعية:.كهف صخري في منعزل في العراء، على بعد عدة أميال من أقرب تجمع بشري ثابت، وعلى أقدام جرف صخري رهيب، بما يعصى على النسيان، وهو يعج بالبشر، الذين تعرفنا عليهم للتو كقطاع طرق، وهم يشبهون الآن في عاداتهم كائنات طبيعية، يا لها من لوحة!.

ولم يكن هذا كل الأمر، فقد تسبب المطر الغزير في ارتفاع مجرى سيل الوادي، وأدى قصف الرعد فجأة إلى انهيار كتل الصخور الملاصقة لمغارتنا. وكان نور البرق يضيء عتمة الليل، يعقبه صوت قصف الرعد الذي يغور عند هذه السدود الصخرية. إن صوت الرعد في هذا المشهد الطبيعي الجليل يجلب في أوروبا قدرا من الرهبة، أما بالنسبة لهؤلاء البدو فكل قصفة رعد كانت تبعث على الضحك الجنوني.

وقد تميز أحمد بسلوكه عن بقية رفاقه تماما، وأبدى نحوي مزيدا من الاهتمام فكلما اقترب شخص من جماعته مني تماما، وأحس بأنه بدأ يضايقني، فقد كان يبعده.

إلى جانب طبعه اللطيف، فقد كان هناك مصلحة خاصة دفعته لذلك. فهو يعرف بأنني مسيحي، وقد توقع، أغلب الظن، أن اقدم بعد عودتي إلى الدير في القدس شهادة لصالحه. وكان هذا بالنسبة له فرصة لا بأس بها، لان عائلته تتقاضى دخلا معتبرا يدفعها الدير سنويا لغرض حماية أمن الحجاج الذين يزورون أريحا ونهر الأردن في مواكب كبيرة من أجل العماد أو الاستحمام. وأبوه كبير شيوخ قبيلته يقف على أمن الحجاج مع العديد من أفراد عائلته بالخيل والسلاح في حدود منطقته.

وتوضح بعض الأمثلة طريقة تفكير أحمد بجلاء. فقد أعد أحد رجاله كعكة في الرمضاء. وجلس أمام أحمد، الذي تلقى منا قطعة من الخبز"قم بالتحضير" قال له "لنا كل الخبز، انظر فقد حضرت الخبز لأجلك"، وهنا وضع لقمة من الخبز في فمه. وبعد قليل أمر واحدا بجلب ماء للشرب، والذي صدع للأمر. وأمر آخر بجلب حطب جاف لتغذية النار، وحين تمنع الأخير عن ذلك بسبب المطر الغزير في الخارج، ذهب بنفسه هناك، وفي لمح البصر جلب كمية كبيرة من الحطب. بعد ذلك حالا جاء صوت يستغيث بأن أحد رجاله في خطر، وكان على الجانب الآخر، وذلك أثناء عبوره السيل الجارف للوادي. ألقى أحمد فورا عباءته وقميصه وهب عاريا تماما لنجدته.

تدلل هذه الأمثلة الفردية كيف يجهد أحمد نفسه لكسب ولاء جماعته، وكم هو رباط الطاعة مفتوح بين الشيخ والإنسان العربي العادي. فقد جلس أحمد بساقين مكشوفتين وظهر عار مثله مثل البقية، وقميصه بالكاد يستر عورته. وبعد فترة أشعل جزء من المجموعة النار في كهف آخر مجاور لكهفنا، ويتشكل هذا الكهف من عدة كتل صخرية. تنفسنا الصعداء، فقد كنت محشورا في مكان صغير في زاوية الكهف، ولم تغمض عيناي للنوم سوى فترة قصيرة طوال الليل.

في اليوم التالي تركنا كهف قطاع الطرق في الساعة السادسة صباحا برفقة أحمد، الذي وعدته ببعض النقود، إذا ما رافقنا حتى أريحا. وعلى طول الشاطئ تنتصب أشجار الصفصاف الكبيرة والصغيرة والقصب بكثرة لمسافة أخرى. وتقع على مرتفع من الأرض، إلى حد أن البحر حين يصل إلى مستوى ارتفاعه الأقصى لا يصلها.

يمتد السهل الصغير على الشاطئ المنبسط بشكل طولي، وهو طيني تارة، ومليء بالحجارة تارة أخرى. صارت الأرض الطينية رخوة بسبب المطر، بما جعل من إمكانية مواصلة التقدم صعبة بعض الشيء. وتتميز هذه الأرض الطينية بالملوحة، ولا تنمو فيها النباتات، كما أكد أحمد. ولكن جزءا من هذه الأرض تكون في فصل الربيع مكسوة بمختلف أنواع النباتات.

وقد وجدنا هنا في عرض السهل موقدا صغيرا مبنيا من الحجارة الغشيمة. ويستعمل البدو مثل هذه المواقد من أجل شي الجديان البرية، وذلك عندما يفلحون في الدفع بواحد منها للسقوط من مرتفعات الجبال الصخرية القريبة.

في الساعة السابعة إلا ربعا مررنا بمحاذاة كهف كبير إلى اليسار منا. وكان في منتصف علو الصخور الشاهقة، يقود إليه ممر ضيق صعودا إلى الأعلى. ويمكن أن يكون مخبأ لا مثيل له لقطاع الطرق، الذين يمكن لهم هنا أن يدافعوا عن أنفسهم بسهولة ضد عدد كبير من المهاجمين.

ولما كان مرافقي الرشيدي قد زار غور الصافي في النهاية الجنوبية للبحر الميت عدة مرات، فقد استعلمت منه عن تل كبير ما بين جبل الملح ومصب البحر، وعرفت الكثير منه. وهذا الجبل هو تل المزوغل، وهو ليس ضريحا تذكاريا لمسلم أو لمسيحي، ولا يمثل مكانة خاصة بالنسبة لهم أو للبدو. ويعني تل المزوغل تل المخادع أو الكاذب أو التل المزيف الأفاق. أن اسم هذا التل الاصطناعي وموقعه، الذي سبق وأن رأيته أثناء سفري من الكرك إلى القدس قد أوحى لي أول الأمر، أنه ربما

يكون الموقع الذي يطلق عليه الناس أعمدة الملح. ولكن الاستطلاعات اللاحقة التي قمت بها لم تقطع الشك باليقين حول هذا الاعتقاد.

في الساعة السابعة والنصف وصلنا وادي الراهب، المعروف باسمه القديم قدرون، ولا يجري فيه السيل إلا في مواسم الأمطار الطويلة. وله مجرى ضيق وعميق، يشق الجبال الصخرية الشاهقة التي ترتفع على كلا جانبيه. وعندما ينزل المطر يندفع سيل جارف إلى السهل الصغير، حيث يتشكل مجرى عريض نسبيا، تسيل فيه القليل من مياه الأمطار، رغم أن مطر البارحة هطل بكثافة.

بعد نصف ساعة تقريبا وصلنا إلى تله اصطناعية صغيرة مكونة من الحجارة الغشيمة، أطلق عليها أحمد اسم اللتون، وأكد بأنها أطلال مدينة قديمة، ولم أجد سببا واحدا مقنعا لهذا الادعاء. فربما كان هنا برج أو حصن أو دير أو مثيله في الماضي. أما الآن، والى حد كبير، فان هذا المبنى غير ذو شأن. وقد بحثت هنا حسب إرشادات بوشنغ الجغرافية عن آثار المباني القديمة، التي وجدها الرحالة الأوائل هنا، ولم يفدني أحمد بأي شيء محدد، وعدا تأكيده حول اللتون فلم نعثر على أطلال في هذه المنطقة. وروى بطرس بأنه قام في السنوات الماضية مع عشرين مسلحا من بيت لحم والبدو بمرافقة الرحالة البريطاني السيد جون جوردان لهذه المنطقة، وأنهم رأوا في الماضي مرتفعا بارزا على بعد معين من شاطئ البحر. وسبح السيد جوردان هناك، وقام بالغطس في هذا المكان وانتشل بضع حجارة من الأعماق أخذها معه. ولان بطرس اختلق لي الكثير من القصص، وبما أنني لم أجد أية آثار تدل على ذلك المرتفع، رغم أن علو مستوى سطح البحر لم يكن كبيرا، لذلك وجدت نفسي مضطرا أن أشك في أقواله.

وعلى مقربة من اللتون، توجد مغارة صغيرة عند أقدام الجرف الصخري، عندها تناولنا فطورنا المعتاد المكون من الخبز الطازج.

كانت الساعة التاسعة عندما غادرنا اللتون، وأظهر مرافقي الرشيدي تبرما شديدا في مواصلة السير معنا، لأنه يعرف ربما صعوبة الطريق، التي تنتظرنا. على أي حال، ورغم أن جماعتي أظهروا اغتباطا ليس في محله على ذلك. وقد ودعنا هنا وعاد أدراجه إلى مضاربه.

تلاشى السهل الذي سرنا فيه عند اللتون. وانتهى هنا بجبل صخري شاهق، وهو يرتفع مباشرة عند حافة شاطىء البحر. وكان أحمد الذي يعرف المنطقة قد أكد بأنه لا يوجد ممر عند أقدام الجبل، لذا توجب علينا الصعود إلى قمة الجبل.

وكان من دواعي ضيقي الإضافي التواء كاحلي في اليوم السابق في دغل عين الغوير، ولم أتمكن من المشي في هذا الصباح. لكن، كان علي أن أستجيب للضرورة الملحة وأتسلق الجبل، ذلك أنه حتى بغلي غير المحمل كان يتقدم بصعوبة بالغة، بعيون ملؤها الشعور بالخطر من كسر أرجله. ولهذا الطريق الصاعد لم نتبين أي أثر، وتوجب علينا تسلق الصخور العارية، والقفز فوق القلاع. وتتكون هذه الصخور من حجر طباشيري رمادي اللون. تنتشر فيه شقوق كثيرة، ربما تكون ناتجة عن البترول الأرضي، وربما أيضا عن مواد معدنية أخرى، وحال لونها إلى السواد. وعلى سطح الجبل الكثير من أكوام الحجارة، سطحها ذو لون أزرق ضارب للحمرة. وكان قد لاح لي في البداية كالدم على سبيل الخطأ. وقد أضفى عليه المطر لونا لامعا. ومن قمة هذا الجبل تمتعت بمشاهدة دائرة واسعة للبحر، وأن أتيقن بأنه لا توجد جزيرة في هذه المنطقة. ولكن، عند أقدام الجبل فقط، لاحظت شرائط صغيرة ومضيق صغير يمتد داخل البحر، بدا لي ككتل الصخور والقلاع ، ترتفع قليلا عن مستوى سطح البحر.

وعلى الجهة الشرقية للشاطئ، قبالتنا تقريبا، تنتصب الجبال ومصب نهر الزرقاء–ماعين أو وادي الزرقا، الذي ينبع بالقرب من أطلال ماعين (بعل معون) في البلقاء.

أكد لي جماعتي الآن أنهم يرون بوضوح ممرا ملاصقا للبحر عند أقدام الجبل. انتابنا شعور بالخجل، كيف قطعنا جبلا شاهقا، على مضض، كالمجانين بدلا من مواصلة السير في الطريق الأكثر يسرا. اعتذر أحمد لأنه لم يكن يعرف هذا الطريق، الذي يبدو أنه يكون غير مرئي في فصول معينة من السنة، عندما يرتفع مستوى سطح البحر.

أصيب جماعتي بالهلع بعد ظهور غير متوقع لبدوي، بدا في الأفق على قمة تله بعيدة. وتخوفوا من هجوم مباغت. أسرع أحمد والتعمريين الآخرين بالنزول عن قمة الجبل، وكان البغل رغم نباهته أقل تدربا على القفز من البشر وبطيئا في سيره. ولم نستطع أن نترك البغل وحيدا لذا بقينا أنا بطرس بجانبه، وكانت فرحتنا كبيرة عندما أتممنا الهبوط عن الجبل.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما عدنا مجددا إلى سهل صغير على الطرف الآخر للجبل. ويروي هذا السهل نبع ماء تعرف بعين الفشخة. والشاطئ هنا على طول مجرى النبع نام بالقصب وشجر الصفصاف والشجيرات، والقصب فيه كثيف للغاية. ولا بد وأن الكثير من الخنازير البرية تحتمي فيه، وتجد فيه مأمنا، ويعود ذلك جزئيا لان هذه المنطقة المنعزلة قلما يزورها الناس، ولصعوبة العثور عليها، وجزئيا لان البدو لا يأكلون لحم الخنزير، وهم لا يصطادونها. وفي الليل تغادر الخنازير حظائرها باحثة عن غذائها بين القصب وفي المنطقة الجبلية أيضا.

وقد التقينا مرة أخرى مع مجموعة من بدو عرب حاتم، الذين أمضوا ليلتهم عند عين الفشخة.

لم يقم الإنسان حسب علمي بالتحليل الكيميائي لمياه البحر الميت في أوروبا، لذا حرصت على تعبئة وعاء بمياه البحر، أرسلته إلى جانب ما جمعته من مخطوطات عربية ونباتات وصخور إلى ألمانيا. ويجد المرء هنا الكثير من الملح عند الشاطئ، كذلك أيضا بعض الكبريت الخالص، الذي جلب لي محمدا قطعة منه. وعين الفشخة موجودة على خريطة فلسطين، حيث يظهر مجرى الموقع إلى الشمال من مصعدة. استمتعت هنا برؤية تيس بري لأول مرة، وهو يقفز على أطراف السدود الصخرية الضخمة. وقد لاذ بالفرار بسبب صيحات العرب العالية وبعض طلقات البنادق.

يمكن الاعتقاد من خلال جرف السيول لجذوع الأشجار وأغصان النباتات، بأن الفرق بين ما مستوى ارتفاع سطح البحر وانخفاضه يصل طول قامة الإنسان تقريبا. وفي أحد الأماكن ترامت جذوع الأشجار على مرتفع من الأرض، وحولها نمت بعض النباتات. وهذا دليل بأن الماء المالح لم يصلها منذ سنوات طويلة. أما مرافقي العرب فيعتقدون بأنها منذ أزمنة قديمة. وتبين لي من خلال الفحص القريب بأنها من نفس أنواع النباتات الموجودة في السيل الحالي، ولا يبدو أن عمرها يزيد عن بضع مئات السنين. لهذا فأنني أجد في هذا الدليل على أن مستوى سطح البحر يصل إلى هذا الارتفاع النادر في حالات المطر الاستثنائية والمتواصلة، أو أثناء الشتاءات الباردة، وعبر ذوبان الثلوج في المناطق الجبلية المرتفعة.

في الساعة الثانية عشرة غادرنا عين الفشخة، وأخذ السهل في الانفراج رويدا رويدا، وصار البحر يضيق أكثر فأكثر، وبما أن الشاطئ الشرقي في الجهة المقابلة يتسع أيضا في جهة البحر، فقد شكل البحر في نهايته الشمالية لسانا يشبه ذلك اللسان في نهايته الجنوبية. وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى طرف البحر، ويقع على مسافة لا بأس بها إلى الشرق منا. كانت الطريق تسير بمحاذاة الجبال، وهي تتجه من الجنوب إلى الشمال بشكل مستقيم تقريبا.

أصبحنا الآن في سهل وادي الأردن الشهير، الذي يسمى الغور، ويطلق علية هنا اسم غور السيسبان، الذي زرت نهايته الشمالية عند طبريا. وأجبرنا العطش في هذا اليوم، أكثر من مرة، على البحث عن الماء في مجاري السيول، وفي أحواض الصخر الصغيرة، مما تراكم من أمطار الليلة الفائتة. وكنا نتجرع شربة الماء، حيث نهبط على ركبنا، ونرتشف الماء مباشرة. كان أحمد قد أكد لنا بأننا سنجد كميات وفيرة من الماء في هذا الطريق، ولهذا السبب لم نقم بملء قربنا من عين الفشخة. وبالنسبة

للماء، على المرء أن لا يثق بتأكيدات البدو، وعليه أن يحرص في كل فرصة تسنح له على إملاء قربته، فهؤلاء الناس تعودوا منذ نعومة أظفارهم على الجوع والعطش وكل أشكال العوز، لأنهم غالبا ما يضطرون لذلك نتيجة ظروف حياتهم القاهرة. ويستطيع البدوي المكوث لفترة طويلة دون أن يتناول شيئا، وهو لا يظن أن بقية الناس ممن لا يقطنون الخيام قادرون على تحمل هذه المشاق بعنت كبير، خاصة عندما يمكن اتقاء ذلك.

في هذه المنطقة تعيش الكثير من الغزلان، وقد قفزت ثلاث منها أمامنا.

عند نهاية البحر تنتهي الجبال الوعرة على هذا الجانب، وتبدأ تلال منخفضة، ذات جوانب منبسطة، تشقها العديد من الوديان الضحلة، وتشكل هذه التلال قمما ناتئة كثيرة.

وصلنا سريعا إلى مجرى واد عريض وجاف، ولمحنا في الساعة الثالثة والنصف أطلال موقع في التلال المنخفضة، سماه أحمد خربة ياجون. ولا يظهر في السهل سوى بعض النباتات المتفرقة، وهذه المساحات الشاسعة جرداء تماما. في الوقت نفسه، أكد لي الناس بأن هذه الأرض تكسوها الأعشاب والنباتات في فصل الربيع، ولكنها حالما تجف بسبب الحر الشديد. وقد علمتني التجارب اللاحقة أيضا بأن السهل الواقع إلى الجنوب من أريحا وحتى البحر الميت يفتقد عموما إلى الخصوبة، بسبب ملوحة تربته ودرجة الحوامض الكبريتية فيه، إضافة، إلى شح المياه، بما يجعل استعمال هذا السهل قليلا بالنسبة للمزروعات المألوفة، أو غير مستعمل البتة.

التقينا بمجموعة من رجال أحمد، الذين سبق وأن التقينا بهم في عين الفشخة. ورغم توقعي أنهم منهكو القوى بسبب المسير، فقد بلشروا في ممارسة تمارينهم الحربية. ويهرب واحد ليلحق به آخر ببارودته، تتخلل ذلك صيحات وحشية مرعبة، ويهاجمه ثم يهرب مرة أخرى بسرعة. ويركضون بحركات وأوضاع معينة، متقاطعة وعرضية ... الخ. إن فن القتال عندهم مبهر حقا، ويمكن أن يثير الرهبة لدى أي إنسان لم يألف ذلك. ووجدت في مناوراتهم بعض التشابه مع مناورات الفرسان الأتراك والعرب، وشاهدت هذه التمثيلية القصيرة باستمتاع.

في الساعة الرابعة إلا عشرين دقيقة عبرنا واديا صغيرا تقطعه ساقية ماء تتكون من خمسة أقواس. واسم هذا الوادي هو وادي القلط. وهو يمتد بمحاذاة أريحا من الجهة الجنوبية. وفي مجرى الوادي وجدنا القليل من الماء الجاري من أمطار الليلة الفائتة. ورغم أننا كنا على مقربة من أريحا فلم نتنبه لذلك، بسبب كثرة الأشجار الدغليه التي تبدأ هنا، وجزئيا بسبب بدء حلول الظلام. وقبل هذا الوادي بقليل تبدأ المنطقة الخصبة الحقيقية للسهل، ذات الشهرة الكبيرة في الماضي، التي رسم لها المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس لوحة خلابة.

تظهر الأرض هنا خصوبة عالية جدا، كنتاج للطبيعة، ويلاحظ المرء القليل من النشاط البشري فيها. والأرض مليئة بالأجمات والأشجار، تشكل شجرة الزقوم[xiii] والسدر أغلبها. ويرى الإنسان معظمها على شكل شجيرات كبيرة، يصل حجم بعضها حجم شجرة متوسطة.

وللزقوم كأس منتشر نسبيا وساقه مستقيمة وضامرة، ولون اللحاء رمادي أو بخضرة الزيتون. وجزء طويل من ساقها مشدوخ، تغطيه قشرة بيضاء، بما يكسبها منظرا جميلا. وشجرة الزقوم مزودة بالكثير من الأشواك، يصل طول بعض هذه الأشواك الحادة الخضراء ما يقرب البوصتين. وهي ذات رأس بني، وتبقى طوال الشتاء. أما الأوراق فخضراء فاتحة وذات شكل بيضاوي، ومنثلمة، وتبدو متماسكة. وبما أن سويقة الورقة لا تقع في الوسط تماما فهي تميل على طرف دائما. وتوجد ورقتان متقابلتان دائما على ساق واحدة طويلة، وطولها بوصة واحدة فقط، وعرضها لا يتجاوز نصف بوصة. ولم أعثر على زهرة لها،

وثمارها موجودة على خط أو خطين طوليين للساق، وهي ذات شكل أسطواني دائري ومتطاول، والى حد ما، ذات خمس زوايا، ولها تقريبا منظر حبات الزيتون الكبيرة.

وبما أنني وجدت هذه الشجرة ليس في حالة الخضرة، فإنني غير متيقن من مكانها في النظام النباتي، ومنظرها الخارجي يشي بتشابه شديد مع شجرة الزيتون. ولا يوجد عندي تحفظ في تعريفها بشجرة الزيتون البرية (أوليا هيرشنتيكا) في أريحا. إلى أن تفيدني معلومات أدق حولها.

وشجرة السدر دائمة الخضرة وتبقى أوراقها في فصل الشتاء، وهي دائرية متطاولة وملساء، ولها من الأسفل ثلاث أضلاع، لونها أخضر، ولكن، القسم العلوي أكثر دكنة من القسم السفلي. وهي بحجم عقلة الأصبع. وسيقانها ذات لون بني، ولكن أغصانها بيضاء وملساء. وهي مسلحة بأعداد هائلة من الأشواك الحادة، زوجا زوجا دائما، واحدة منها مستقيمة أو مائلة قليلا، والأخرى مجنحة. وتكون ثمارها خضراء في البداية، تصير صفراء عند نضجها. وهي بحجم حبات الكرز الصغيرة، وصلبة، وطعمها حامض وتقبض الفم عند الأكل. ويطلق عليها الناس في هذه المنطقة اسم الدوم. ويستعملها الفلاحون والبدو عند نضجها كفواكه للأكل جزئيا. أحيانا تطحن على شكل مسحوق وتغمس بالزيت، ومذاقها حامض. وينمو السدر غالبا كشجيرات إلى أن يصل بحجم الشجرة الكبيرة. وتبدو لي هذه النبتة كشجرة (رامنوس زيزيفوس ل.) البرية.

إلى جانب شجرة السدر، وجدت شجرة الظل الليلي المقدسة بكميات كبيرة، وتحمل الأزهار والثمار الناضجة وغير الناضجة في الوقت نفسه، ولا تختلف في شيء عن تلك التي عثرت عليها في عين جدي.

بين هذه الأشجار هناك عدة مضارب لعرب حاتم على بعد ربع ساعة تقريبا، وهي متوارية عن الأنظار بحيث يصعب الاستدلال عليها لو أن أحمد ليس مرشدنا، ولو لم يكشف نباح كلاب البدو عن مكانها. وصلنا إلى سيل صغير يجري من عين السلطان، وهو نبع المعجزات الشهير، الذي تحدث عنه يوسيفوس، ومؤشر عليه في خريطة فلسطين باسم نبع أليشا. وماؤه عذب للغاية.

قادنا أحمد إلى مضرب صغير حيث يوجد بيت شعر والده، وقد استقبلونا بحفاوة وأمضينا الليل فيها. وبيوت الشعر في المضرب مقامة حول ساحة دائرية صغيرة، وفي الليل تحشر فيها كافة الحيوانات وممتلكات صاحب بيت الشعر. ومن أجل تأمينها ضد الحيوانات المفترسة أو اللصوص اعتاد الناس هنا على بناء سياج صغير من أغصان السدر، التي تجعل أشواكها الدخول صعبا. وعدا ذلك، يوجد كلب أمام كل بيت شعر، وهي كلاب تتميز بالشراسة وتبقى ساهرة طيلة.

والشيخ ناصر رجل في الستين من عمره. وتشي ملابسه بأنه أكثر من مجرد شيخ عادي، وأنه مرتبط بوشائج مع حياة المدينة. وكان قد تمنطق بمشد أحمر وعصبة رأس بيضاء وثوب قطني أبيض فضفاض، وينتعل حذاءا، وكانت سيقانه عارية. وعندما عرف بأنني إفرنجي أبدى حفاوة كبيرة بي، ودعاني للجلوس بجانبه ..الخ. ومظاهر الحفاوة عند المسلمين عموما عندما يلتقون بواحد من دين آخر ليست مجردة من المصلحة الخاصة. فالشيخ ناصر يرافق جميع الحجاج الذين يأتون إلى أريحا من أجل الغطاس في نهر الأردن وزيارة الأماكن المقدسة الأخرى في المنطقة. وهو يقدر منذ الآن المزايا التي سيجنيها مني مستقبلا. وقد وجدنا ضيوفا عنده، وهم ثلاث فرسان عرب من قبيلة العدوان الكبيرة في أرض البلقا، وقد كانت رماحهم مسندة على طرف خيمة الشيخ.

لم يكن عند الشيخ ناصر قهوة. ولهذا فقد شاركت الجميع من القهوة التي أحملها. وبعد وقت قصير قدمت لنا باطية كبيرة من البرغل المعد بالزبد. ولم نشارك أنا وبطرس في الأكل لأننا ما زلنا على صوم. كذلك كنا قبل ذلك قد رفضنا دعوة الضيافة

لذبح خروف على شرفنا للسبب نفسه. ولم يكن الخبز والزيت متوفرا كما أكد لنا الشيخ. وهكذا أمضينا الليل على الطوى. رغم أنني لا أتحمل هذا الهفوة. وقد أكل الشيخ ناصر ما تبقى بشهية.

وروى أحمد لأبيه عن نجاح مهمته، كما لو أنها تقريبا حملة عسكرية في أوروبا يرويها ضابط لجنراله. قائلا، لقد كشفونا حينما كنا نعد الخبز في بطن الجبل. ثم استعدوا للهجوم. وحينما لجئنا للهرب قاموا باللحاق بنا، وبعد قليل أمسكوا بنا، وعندما بدءوا في سلبنا، تبينوا أن صديقا ومعرفة لهم موجود بيننا، ولهذا فقد أعادوا بشكل تلقائي كل الغنائم. ونظرا للطقس الماطر فقد تنازلوا عن الهدف الأصلي للحملة وعادوا معنا. لقد روى ذلك بكل جدية، بحيث يستنتج المرء من ذلك بأن هذه الأحداث تبدو طبيعية تماما لهم.

استمعنا لبضعة ساعات في ذلك المساء لموسيقى الربابة العربية. ويحب العدوان كباقي البدو هذه الموسيقى بشغف، وكبير شيوخهم الشاعر البدوي المشهور نمر له في هذا الفن شهرة كبيرة. وقد عزف اثنان منهم على هذه الآلة، يرافقها الغناء دائما، بحيث يختار الإنسان قصيدة. ولكن الثناء الكبير كان من نصيب ابن الشيخ الذي لا يتجاوز عمرة إحدى عشر أو اثنا عشر سنة، الذي رافق عزفه غناء صادر عن الروح، يساعده صوته الحسن الرخيم في ذلك. وكان من بين ما غناه قصيدة في مدح أحد شيوخ العدوان، والذي أعتبره الضيوف الثلاثة تكريما كبير لهم. ويظهر هذا الصبي الكثير من الروح وحب المعرفة، وتوسمت فيه موتسارتا عربيا في صباه.

18 ديسمبر 1806

رغم أن بطرس وعدني بزيارة نهر الأردن وجبل قرنطل الشهير بالقرب من أريحا، والذي يطلق علية رهبان القدس لا كوارنتانيا، فقد اثار الآن الكثير من المصاعب، لحد أن قمت بتأجيل زيارتي لهذه الأماكن في جولتي القادمة.

في الصباح وعندما كنا على وشك الانطلاق في طريق العودة إلى القدس، تقدم الشيخ ناصر بطلبه الذي كان يداريه بصعوبة. وقال "أنا لي كما يعرف الجميع" حق على كل الحجاج الذين يأتون هنا، ولا بد وأنكم تدركون الضرورة بأن اطلب منكم الغفر أيضا. وأجبت هذا الأمر غير معروف بالنسبة لي. وأنت تعرف يا شيخ ناصر بأن الفرنجة لا يدفعون الغفر، وفوق ذلك، فقد تلقى بطرس قدرا من المال لهذه الرحلة، وإذا ما كان راغبا في إعطائكم بعضا منه فلا مانع لدي.، ولكنني لا أرى نفسي ملزما بذلك". اشتبك بطرس الآن في جدال معه، حيث أنكر حق الشيخ على الفرنجة. "أتريد ذلك بالقوة" فإنني سأعرف كيف أجدكم في القدس"، انك تسكن الآن في منطقتنا. ,أجاب الشيخ "أنت حر"، أنني أعيش حرا في منطقة القدس، وأنا أعرف طريقة لا تضرني، ودون أن توجه لي أي تهمه. هنا أصدقائي الثلاثة من العدوان، الذين سيقدمون خدمة لي، سيتبعونكم في الطريق ويسلبوكم. وصاحوا هذا صحيح! أهذا صحيح!. ولكن ما العمل الآن؟ يجب التوصل إلى اتفاق مع الشيخ، وانتهت المساومة أخيرا بدفع ثلاثة قروش بدلا من عشرة قروش.

وبما أن أريحا المدينة المشهورة في الكتب العبرية تبعد مسيرة ربع ساعة فقط عن مضارب الشيخ، فقد أملت في العثور على الكبريت الخالص، الذي يجده الإنسان باتجاه الجنوب. سلكنا الطريق إليها. وهي الآن من أكثر القرى البائسة التي سبق ورأيتها. و يبدو أن اسم أريحا الحالي مشتق من اسمها القديم. وهي تتكون من دزينة من البيوت المبنية بالحجارة الغشيمة، وبيوتها واطئة وذات هيئة زريه. وحول كل بيت تقريبا ساحة صغيرة، يحيط بها سور بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام، ومسيجة بأغصان السدر. في الأزمنة القديمة سميت هذه البقعة مدينة النخيل بسبب كميات النخيل الكبيرة التي تنمو فيها. كم تبدلت الصورة! ففي هذه المنطقة كلها لم أشاهد واحدة منها. كما أن البرج المربع الذي يظهره بوشنغ لم يعد موجودا. والويد وهي نبتة تستخرج منها الأصباغ،

ربما لم تزرع هنا أبدا. ولكن النيلة (الانديغيو) يزرعها الناس حتى الآن على الجهة الجنوبية لوادي القلط حيث رأيت نبتة منها، وهي لا تحتاج إلى عناية كبيرة على ما يبدو. ويطلق الناس هنا اسم البذر على نبتة الأصباغ، وهي نفس النوع الذي يزرع بالقرب من بيسان، لان الإنسان ينتزع بذرها ويرسله إلى مصر. والقليل من الكبريت مثله مثل زيت الزقوم متوفر عند الفلاحين الآن، وتوجب علي أن أتحين فرصة أخرى. والسرو والريحان، وربما يكون الأخير يشبه فستق البان، الموجود حسب تأكيدات يوسيفوس، لا يجده المرء الآن. وما يقصده يوسيفوس بشجرة البلسم العطرية، فلا أعرف عنه شيئا، إذ لا توجد الآن أية شجرة تسيل منها عصارة البلسم. ذلك أن شجرة التربنتين غير موجودة هنا. وفيما لو توافرت فلن تكون نادرة طبعا، إذ يجدها الإنسان بكميات كبيرة في جبال القدس والخليل. ولكن تنبت هنا أشجار الاسكلوب الكبيرة أو العشير، التي يحصل الإنسان منها على عصارة جليبية عند قطعها، وهل يمكن أن يكون هذا الحليب هو البلسم!، أم أنه يقصد زيت الزقوم؟ ولكنه لم يفصح فيما إذا كان البلسم يسيل من الأشجار. وباختصار لا أعلم علم اليقين ماذا يمكن أن يفهم المرء تحت ذلك.

وعدني أحمد بمرافقتي حتى القدس، ولكنه حين علم بأنني أريد أن أسلك طريقا ملتفة عبر مقام النبي موسى، تقع إلى الجنوب من الطريق المختصرة، فقد أحجم عن الذهاب. وتحتاج الطريق المباشرة من أريحا إلى القدس إلى ستة ساعات فقط. كانت الساعة السابعة عندما غادرنا أريحا، وبدأ المطر في النزول. لم يرق لجماعتي اختياري لهذه الطريق الملتفة، وسمعت خليل يطلق علي بعض الألقاب، التي تبين مدى امتعاضه. والتزمت الصمت حيال ذلك. وعلى طول الطريق، كان يشعر بالجوع طالبا مني الخبز، رغم أنه يعرف جيدا بأنه ليس معي خبز. وبمحض الصدفة وجدت معي حبتين من البصل الدمشقي، أعطيته إياها. والآن صاروا مجددا أصدقائي. قال خليل: لا موسى (سافر سيتزن تحت هذا الاسم) غير حاقد علينا، حقا انه ليس سيئا، كما أنه الآن رفيقنا.

من أريحا سرنا في البداية باتجاه الجنوب عبر السهل إلى أن وصلنا أقدام الجبال نحو الساعة الثامنة، ثم بدأنا صعود هذه الجبال ذات الانحدار البسيط، والحجارة فيها قليلة، وتخترقها طريق مريحة نسبيا. ولقينا هنا اثنان من العرب غير المسلحين، انطلق إليهم محمد وسألهم بإلحاح من أين هم قادمون والى أين هم قاصدون، وتمنى لهم سفرا ميمونا.

ومن فوق هذه الجبال رأيت النهاية الشمالية للبحر الميت بشكل دقيق تقريبا، واقتنعت بسهولة، بأن لسان الأرض الضيق، الذي يمتد داخل البحر حسب خريطة فلسطين غير موجود.

في الساعة الثامنة والنصف وصلنا مقام النبي موسى، وهو مزار للمسلمين، ولكنه يزار أيضا من قبل المسيحيين. ويتكون مقام النبي موسى من مسجد صغير، له منارة صغيرة، ومحاط بسور. والساحة الداخلية لهذا المبنى مبلطة بحجارة المرمر. وقد لاحظ مرافقي العرب بسرور بأنني خلعت حذائي، قبل أن أدخله، رغم أن البلاط كان مبللا تماما بسبب المطر. وفي هذا المسجد يجد الإنسان معجزة كبيرة، يمكن أن تجعل علماء اللاهوت والحاخامين الأوروبيين يهزون رؤوسهم عجبا، وهو قبر النبي موسى على وجه التحديد. وكان مجللا بغطاء من القماش الأخضر. وعند الحماية المعدنية لفتحة الشباك، التي يطل منها الإنسان،علقت أعداد لا تحصى من الخرق حسب التقاليد الإسلامية. وقد قبلناه، وأدى مرافقي الصلاة في المسجد.

ويمكن أن يشكل موقع مقام النبي موسى محل اهتمام لدى علماء الصخور أكبر من اهتمامنا الروحي. وهو يقع على جبل تحيط به الوديان العريضة. وعلى أطرافها يرى الإنسان في كل مكان حجر النبي موسى المشهور. وهو بلا شك الحجر الذي وصفه بوشنغ في كتابه (وصف الأرض، آسيا ص 404). وهو حجر أسود قابل للاحتراق، كنوع الصخور التي يجدها الإنسان في بعض الأماكن في الجبال الألمانية. وإذا ما تم كسر هذا الحجر أو الضرب عليه تنبعث منه رائحة كريهة، وهو قابل للاشتعال

إلى حد ما. ويشكل على طول الطريق مسطحات صخرية عارية. وقد استخدمه الناس في القدس في بناء كنيسة القيامة. ويجهز للتبليط، بحيث يكتسب لمعانا معينا، ويكون جزءا من بلاط الكنيسة. ورغم تأكيد بوشنغ حول خطورة هذا البلاط، فيمكن أن يطمئن الناس بسهولة، عندما يعرفون، كم هي قليلة قابلية اشتعال هذا الحجر.

ويقع مقام النبي موسى على نحو معين في البرية، والجبال المحيطة به تقطنها منذ فترة طويلة قبيلة حاتم، الذين قابلنا كثيرا منهم في رحلتنا، وهم يربون الجمال والضأن والماعز. وفي هذه المنطقة العزلاء التقينا بدرويش مسلم من أطراف الهند، ومنه يتبين المرء الشهرة الكبيرة لهذا المزار في البلاد البعيدة. ويقيم مثل هذا الزائر هنا ما بين خمسة إلى ستة سنوات تقريبا، إلى أن يحل محله درويش هندي آخر. ويكن البدو لهؤلاء الدراويش الاحترام الكبير، ويقدمون إليهم شتى أنواع الأغذية التي يمتلكونها.

في اتجاه الجنوب، على بعد بضعة ساعات من هذا المكان يقع دير مار سابا الشهير للروم الأرثوذكس، الذي هو محل شهرة كبيرة لدى المسيحيين اليونان، وزيارته ليست متيسرة لهذه الجماعة، ورغم أنه في منطقة جبلية مرتفعة، فهو يقبع خلف الجبال القريبة، ولم يتسنى لي رؤيته.

بعد إقامة قصيرة، غادرنا مقام النبي موسى. وفي الساعة العاشرة والنصف مررنا بالقرب من أحد مضارب قبيلة حاتم. وبعد عشرين دقيقة توقفنا من أجل إشعال النار وعمل الخبز، وكنا قبل ذلك، قد أعددنا العجين، ربما على سطح صخرة أو على الجلد، بالقرب من حفرة تجمع فيها المطر.

والجبال التي قطعناها تتخللها أعداد لا تحصى من الأخاديد القاحلة، ويمكن مقارنتها مع الجبال المحيطة بالقدس. وصخورها وحجارتها أقل بكثير. وسطحها يتكون غالبا من نوع من الطفل الجيري أو الرمل الخشن. وهنا عثرت على حفنة جميلة من حجارة الصوان. ورغم توقع المرء أنها أكثر خصوبة من جبال فلسطين الداخلية، فان الحال ليست كذلك، لأنها كما رآها يوسيفوس غير مسكونة سكنا ثابتا منذ آلاف السنين.

في الساعة الحادية عشرة والنصف واصلنا المسير، ورغم أن الطريق تقطع الجبال والوديان فقد كانت جيدة ومريحة، لان الإنسان صنع أدراجا من الحجر في المناطق الوعرة والمعلقة، وقام بتسوية المناطق المرتفعة منها. ويشكل هذا خدمة عظيمة للحجاج الذين يزورون مقام النبي موسى. وقام بعض الصبية من البدو بشتمنا لأنهم اعتقدوا بأننا حجاجا عاديين. وعلى الطريق انتشرت أشجار السدر التي طالما رحبنا بثمارها الحامضة.

بعد ذلك، مررنا بالقرب من خرائب الخان الأحمر. وفي الساعة الواحدة والنصف وصلنا خان الحوط، وهو بناء صغير، والى جانبه يوجد نبع عذب، ولكنه شحيح السيلان. وبعد ربع ساعة، عبرنا قرية العيزرية الصغيرة، وهي تقع على سفح جبل، وتقبع بيوتها بين الأنقاض جزئيا. والى جانبها يوجد واد صغير جميل، جوانبه مزروعة بأشجار التين والزيتون. وهنا تساقط المطر مرة أخرى، وامتد لفترة في هذا اليوم.

ومن هنا سرنا فوق قرية سلوان بجانب طنطور فرعون ومنه إلى بوابة النبي داود، ثم دلفنا داخل مدينة القدس. وتقع على بعد نصف ساعة من العيزرية. وذهب خليل خارج المدينة إلى بدوي من معارفه. ورافقني محمد مع بطرس إلى الدير.

وحين كان الأول معي، رجاني أن أعطيه خمرا، وقد أكد بأن العديد من البدو يحتسونها خفية. ولكن الخمر أصبح مخالفا لعقيدته، ولا يريد أن يشربه، عندما لم يكن الخمر متوفرا. ورفض تناول السمك الذي قدمته له، لان البدو ذو موقف صارم ضده.

كنت في غاية السرور بالتعرف على جزء لا بأس به من البحر الميت ومحيطه، وأن أدون ملاحظاتي حول هذا البحر العجيب.

[i] حول سيرة حياة أولريخ جاسبر سيتزن انظر نفس المصدر ص 23–30.

[ii] تقع واحة عين جدي على الشاطئ الغربي للبحر الميت، وقد حملت اسم النبع الذي يغذيها، وأطلق عليها أيضا اسم مدينة الملح. ذكرت عين جدي في الروايات التوراتية في أسفار يوشع وصمويل الأول، واشتهرت في الماضي بنباتاتها العطرية، وفي القرن الأول الميلادي أشار المؤرخ يوسيفوس إلى نخيلها الطيب وبلسمها. ورغم وصف المؤرخ بلني للمدينة بأنها كومة من الرماد، فقد ذكر الأب يوسيبوس في القرن الرابع الميلادي بأنها مدينة كبيرة جدا. وتعود أقدم البقايا الأثرية المكتشفة في عين جدي إلى العصر الحجري النحاسي، أي آلي أواخر الألف الرابع ق. م. حيث تم الكشف عن بناء يشبه المعبد. وفي سنة 1948 جرت تنقيبات في تل الجرن، وأظهرت التنقيبات أثار استيطان متواصل في العصر الحديدي الثاني والفترة الفارسية والفترة الرومانية والبيزنطية، وتم الكشف عن حمام روماني. وحافظت عين جدي على مكانتها الهامة طوال الفترة العربية أيضا.

[iii] يقع جبل الفريديس على بعد 12 كم جنوب شرق القدس، ويعرف بحصن هيروديون، وينسب بناؤه إلى الملك هيرود الكبير (37–4 ق.م.). وقد جاء وصف الحصن في عدد من المصادر التاريخية، وفي القرن الخامس عشر وصف الرحالة فيليكس فابري الموقع كقلعة صليبية. ولكن التنقيبات الأثرية التي قام بها الاب كاربو من مركز الدراسات الفرنسيسكانية ما بين 1962–1967، ثم التنقيبات اللاحقة التي قام بها فورستر ونيتسر من الجامعة العبرية دلت على أن الحصن كان مأهولا في الفترة الرومانية، وأعيد استخدامه في الفترة البيزنطية حيث قامت قرية على أقدام التل، وتم الكشف عن أجزاء واسعة من الحصن الروماني والمباني السكنية والمنشئات المائية إضافة إلى خمسة من الكنائس البيزنطية.

[iv] لقد أثبتت المسوحات والتنقيبات الأثرية عدم صحة الاعتقاد بأن جبل الفريديس هو حصن إفرنجي، ويبدو أن هذا الاعتقاد قد استند إلى تقديرات فيليكس فابري الخاطئة.

[v] قصر الليمون ويعرف باسم قصر أبو ليمون. دلت المسوحات الأثرية على آثار تعود للفترة البيزنطية، وهي تشير إلى تاريخ إنشاء الموقع. كما توجد دلائل استخدام الموقع في الفترة المملوكية.

[vi] ويقع وادي خريطون على بعد 8 كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم. وهو من الوديان السحيقة، ويشق طريقه بين الجبال متجها شرقا نحو البحر الميت. وفي جنبات الوادي تم التنقيب عن دلائل لحضارات ما قبل التاريخ خصوصا في مغارة عرق الأحمر وأم قلعة وأم قطفة. وما زال الوادي يحمل اسم الأب خريطون الذي عاش متنسكا في المنطقة وأسس ديرا فيها في القرن الرابع الميلادي. أما خربة خريطون وتعرف بدير خريطون، فهي عبارة عن بقايا دير بيزنطي يطل على الوادي، وينسب إلى الأب خريطون. ويضم الموقع مساحة ثمانية عشر دونما، وهو محاط بسور دفاعي وأبراج، وتم الكشف في الموقع عن العديد من الآبار المنحوتة في الصخر. وشيدت بيوت السكن في الموقع على مستويين. وكانت تحيط بالدير حدائق مرتبطة بنظام ري اصطناعي. وبقي الدير مأهولا حتى الفترة الإسلامية المبكرة.

[vii] مغارة خريطون، المعصى وهي مغارة طبيعية تقع على السفح الجنوبي لوادي خريطون، مقابل مغارة أم قطفا تقربيا. على بعد نحو نصف كيلومتر إلى الجنوب من خربة خريطون، والمغارة ذات مدخل ضيق يفضي إلى فراغات متعرجة في بطن الجبل، ويمكن الدخول إليها لمسافة 150 مترا تقريبا، وتوجد فيها دلائل استخدام بشري، ربما كملجأ للنساك منذ القرن الرابع الميلادي.

[viii] السدر (راموس زيزيفوس) وتنمو بكثرة في وادي الأردن، ومعظمها على شكل شجيرات وتحمل هذه الشجرة ثمرا صغيرا يدعى نبق، وتسمى شجرة الدوم أيضا.

[ix] العشير، العشر وهي ربما شجرة كاليتروبيس بروكيران، ويستعمل خشبها المحروق في تركيب المساحيق، وحليبها في علاج العقم، وزغبها في حشو الوسائد وبعض أنوع الغزل.

[x] تفاح سدوم وهو العشر أو العشير أو هو المغد: أنظر من الارز إلى الزوفا ص 88-89.

[xi] السكران وهو الشوكران، ويطلق عليه اسم خدك أيضا (سولانم ساكتوم ل.) وهي شجيرات شوكية قصيرة لنبات عنب الثعلب. تنمو قرب أريحا ووديان البحر الميت، ولها زهور أرجوانية وفاكهتها صفراء صغيرة كحبات التفاح الصغير، وهي التفاحة الأثيوبية المعروفة عند بعض علماء النباتات القدامى.

[xii] وردة أريحا، وتعرف باسم كف العذراء، أو كف مريم والتسمية الأخيرة أكثر شيوعا، وهي ليست زهرة ولا تنمو في أريحا، بل تنمو على شواطئ البحر الميت. وهناك الكثير من المعتقدات الشعبية حول هذه النبتة، وهي ترمز الجديدة. للمزيد حول المعتقدات الشعبية المرتبطة بهذه النبتة، انظر جريس كروفوت ولويس بالدنزبيرغر، من الارز إلى الزوفا، جمعية الدراسات العربية، 1986: 162-168 (ترجمة د. عيسى المصو).

[xiii] لا تنمو شجرة الزقوم إلا في محيط البحر الميت، ويستخرج زيت الزقوم من قشور الثمر الناضج بعد سحقه وغليه. ويستعمل في علاج المفاصل والجروح، وكان يستخرج ويباع للسياح كبلسم، وهو يختلف عن البلسان الذي كان يزرع قديما بالقرب من أريحا، وله استعمالات طبية، كما يدخل زيته في طقوس التكريس الدينية. انظر من الارز إلى الزوفا، ص 121-122، مصدر سابق.

[xiii] اعتمدت هذه الترجمة على النص المنشور باللغة الألمانية في المصدر التالي:

Scurla, Herbert Reisen im Orient, Berichte deutscher Forscher aus dem 18. Und 19. Jahrhundert. Verlag der Nation, Berlin, 1966: 157-200.

[xiii] حول سيرة حياة أولريخ جاسبر سيتزن انظر نفس المصدر ص 23-30.

[xiii] تقع واحة عين جدي على الشاطئ الغربي للبحر الميت، وقد حملت اسم النبع الذي يغذيها، وأطلق عليها أيضا اسم مدينة الملح. ذكرت عين جدي في الروايات التوراتية في أسفار يوشع وصموييل الأول، واشتهرت في الماضي بنباتاتها العطرية، وفي القرن الأول الميلادي أشار المؤرخ يوسيفوس إلى نخيلها الطيب وبلسمها. ورغم وصف المؤرخ بلني للمدينة بأنها كومة من الرماد، فقد ذكر الأب يوسيبوس في القرن الرابع الميلادي بأنها مدينة كبيرة جدا. وتعود أقدم البقايا الأثرية المكتشفة في عين جدي إلى العصر الحجري النحاسي، أي آلي أواخر الألف الرابع ق. م. حيث تم الكشف عن بناء يشبه المعبد. وفي سنة 1948 جرت تنقيبات في تل الجرن، وأظهرت التنقيبات أثار استيطان متواصل في العصر الحديدي الثاني والفترة الفارسية والفترة الرومانية والبيزنطية، وتم الكشف عن حمام روماني. وحافظت عين جدي على مكانتها الهامة طوال الفترة العربية أيضا.

[xiii] يقع جبل الفريديس على بعد 12 كم جنوب شرق القدس، ويعرف بحصن هيروديون، وينسب بناؤه إلى الملك هيرود الكبير (37-4 ق.م.). وقد جاء وصف الحصن في عدد من المصادر التاريخية، وفي القرن الخامس عشر وصف الرحالة فيليكس

فابري الموقع كقلعة صليبية. ولكن التنقيبات الأثرية التي قام بها الاب كاربو من مركز الدراسات الفرنسيسكانية ما بين 1962-1967، ثم التنقيبات اللاحقة التي قام بها فورستر ونيتسر من الجامعة العبرية دلت على أن الحصن كان مأهولا في الفترة الرومانية، وأعيد استخدامه في الفترة البيزنطية حيث قامت قرية على أقدام التل، وتم الكشف عن أجزاء واسعة من الحصن الروماني والمباني السكنية والمنشئات المائية إضافة إلى خمسة من الكنائس البيزنطية.

xiii لقد أثبتت المسوحات والتنقيبات الأثرية عدم صحة الاعتقاد بأن جبل الفريديس هو حصن إفرنجي، ويبدو أن هذا الاعتقاد قد استند إلى تقديرات فيليكس فابري الخاطئة.

xiii قصر الليمون ويعرف باسم قصر أبو ليمون. دلت المسوحات الأثرية على آثار تعود للفترة البيزنطية، وهي تشير إلى تاريخ إنشاء الموقع. كما توجد دلائل استخدام الموقع في الفترة المملوكية.

xiii ويقع وادي خريطون على بعد 8 كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم. وهو من الوديان السحيقة، ويشق طريقه بين الجبال متجها شرقا نحو البحر الميت. وفي جنبات الوادي تم التنقيب عن دلائل لحضارات ما قبل التاريخ خصوصا في مغارة عرق الأحمر وأم قلعة وأم قطفة. وما زال الوادي يحمل اسم الأب خريطون الذي عاش متنسكا في المنطقة وأسس ديرا فيها في القرن الرابع الميلادي. أما خربة خريطون وتعرف بدير خريطون، فهي عبارة عن بقايا دير بيزنطي يطل على الوادي، وينسب إلى الأب خريطون. ويضم الموقع مساحة ثمانية عشر دونما، وهو محاط بسور دفاعي وأبراج، وتم الكشف في الموقع عن العديد من الآبار المنحوتة في الصخر. وشيدت بيوت السكن في الموقع على مستويين. وكانت تحيط بالدير حدائق مرتبطة بنظام ري اصطناعي. وبقي الدير مأهولا حتى الفترة الإسلامية المبكرة.

xiii مغارة خريطون، المعصى وهي مغارة طبيعية تقع على السفح الجنوبي لوادي خريطون، مقابل مغارة أم قطفا تقريبا. على بعد نحو نصف كيلومتر إلى الجنوب من خربة خريطون، والمغارة ذات مدخل ضيق يفضي إلى فراغات متعرجة في بطن الجبل، ويمكن الدخول إليها لمسافة 150 مترا تقريبا، وتوجد فيها دلائل استخدام بشري، ربما كملجأ للنساك منذ القرن الرابع الميلادي.

xiii السدر (راموس زيزيفوس) وتنمو بكثرة في وادي الأردن، ومعظمها على شكل شجيرات وتحمل هذه الشجرة ثمرا صغيرا يدعى نبق، وتسمى شجرة الدوم أيضا.

xiii العشير، العشر وهي ربما شجرة كاليتروبيس بروكيران، ويستعمل خشبها المحروق في تركيب المساحيق، وحليبها في علاج العقم، وزغبها في حشو الوسائد وبعض أنوع الغزل.

xiii تفاح سدوم وهو العشر أو العشير أو هو المغد: أنظر من الارز إلى الزوفا ص 88-89.

xiii السكران وهو الشوكران، ويطلق عليه اسم خدك أيضا (سولانم ساكتوم ل.) وهي شجيرات شوكية قصيرة لنبات عنب الثعلب. تنمو قرب أريحا ووديان البحر الميت، ولها زهور أرجوانية وفاكهتها صفراء صغيرة كحبات التفاح الصغير، وهي التفاحة الأثيوبية المعروفة عند بعض علماء النباتات القدامى.

xiii وردة أريحا، وتعرف باسم كف العذراء، أو كف مريم والتسمية الأخيرة أكثر شيوعا، وهي ليست زهرة ولا تنمو في أريحا، بل تنمو على شواطئ البحر الميت. وهناك الكثير من المعتقدات الشعبية حول هذه النبتة، وهي تؤمز الجديدة. للمزيد حول

المعتقدات الشعبية المرتبطة بهذه النبتة، انظر جريس كروفوت ولويس بالدنزبيرغر، من الارز إلى الزوفا، جمعية الدراسات العربية، 1986: 162–168 (ترجمة د. عيسى المصو).

[xiii] لا تنمو شجرة الزقوم إلا في محيط البحر الميت، ويستخرج زيت الزقوم من قشور الثمر الناضج بعد سحقه وغليه. ويستعمل في علاج المفاصل والجروح، وكان يستخرج ويباع للسياح كبلسم، وهو يختلف عن البلسان الذي كان يزرع قديما بالقرب من أريحا، وله استعمالات طبية، كما يدخل زيته في طقوس التكريس الدينية. انظر من الارز إلى الزوفا، ص 121–122، مصدر سابق.